عالَم نارنيا

سي أس لويس

إبْن أخْت السَّاحِر

عالم

نارنيا



بداية المغامرة

نارنيا ... حيث الحيوانات الناطقة تمشي ... حيث الساحرة تنتظر ... حيث عالمٌ جديد يوشك أن يولَد.

في سعي ساحرٍ لمعرفة المجهول، دفع بولدين إلى عالم آخر، حيث تسعى ساحرة شريرة لاستعبادهما. ولكن أغنية أصلان تنسجُ أرضاً جديدةً، أرضاً ستُعرَف باسم «نارنيا». وفي نارنيا، كل شيءٍ ممكن ...

ISBN 90-5950-015-6

9 789059 500150

إبنُ أختِ السّاحِرِ

«هي قصة مهمة جداً لأنها تبيّن كيف بدأت جميع الاتصالات في كلا الاتجاهين بين عالمنا هذا وبلاد نارنيا».
هكذا ابتدأ الكاتب قصته.

في أحد أبرد مواسم الصيف وأكثرها رطوبةً، يقرّر پولي وديغوري أن يقوما باستكشاف عليّة البيت القديم الطويل. فيسيران بحرصٍ على العوارض ويزحفان عبر ذلك الممر المعتم الذي يصل بيتيهما بالبيت الفارغ الواقع بعدَهما. ماذا سيجدان؟ هل يكون بيتاً مسكوناً بأرواحٍ شريرة؟ بل ربما يكتشفان عصابةً من المُجرمين اليائسين! وعلى كل حال، لا بد أن هنالك سرّا ما!

ويبدو أنهما أُحبِطا حين رأيا أن الغرفة التي دخلاها صدفةً هي غرفة عمل أندرو، خال ديغوري. ولكن حينما يجري اختباراً غريباً يجعل بولي به تختفي حالاً من العالم، يصير من الواضح أن الصيف الممل سيتحول إلى مغامرةٍ مثيرة تماماً وغريبة.

هذه هي المغامرة الشيّقة الأولى في
عالم نارنيا.

روايات عالم نارنيا

الكتاب الأول
ابن أخت الساحر

الكتاب الثاني
الأسد والساحرة وخزانة الملابس

الكتاب الثالث
الحصان وصبيّه

الكتاب الرابع
الأمير كاسپيان

الكتاب الخامس
رحلة جوّابة الفجر

الكتاب السادس
الكرسي الفضي

الكتاب السابع
المعركة الأخيرة

إبْنُ أخْتِ السَّاحِرِ

سي أس لويس
رسوم: پولين بَينز

ترجمة: سعيد باز



أوفير

مُهدى إلى عائلة كيلمر



تعريف الشخصيات

أصلان: ملك الغابات وسيّدُها، ابن الإمبراطور في ما وراء البحر. إنه الأسد، الأسد العظيم. وهو يأتي ويذهب كيفما ومتى شاء، ويأتي لإطاحة الساحرة وإنقاذ نارْنيا. ويظهر أصلان في الكتب السبعة كلّها.

ديغوري كيرك: نقابل ديغوري من بداية «ابن أخت الساحر»، وهو مذكورٌ أيضاً في «الأسد والساحرة وخزانة الملابس». ولولا شجاعة ديغوري، لربما لم نسمع بنارْنيا قط. أما السبب فتجده في «ابن اخت الساحر».

پولي پلامر: هي أول شخصٍ يغادِر عالمنا إلى نارْنيا. وتشترك مع ديغوري في بداية كل شيءٍ في «ابن أخت الساحر».

جاديس: آخر ملكات شارْن التي دمَّرتها هي نفسُها. تظهر جاديس مع ديغوري و پولي في «ابن أخت الساحر»، وقد استولت على البلاد في «الأسد والساحرة وخزانة الملابس». وفضلاً عن كونها شرّيرةً كُلّياً، فهي خطِرة جداً أيضاً، حتى في «الكرسيُّ الفضيُّ».

الخال أندرو: يعتقد السيّد أندرو كِترلي أنّه ساحر. ولكنه مثلُ جميع الذين يعبثون بأُمور السحر لا يعرف بالحقيقة ما يفعله. وتأتي النتائج رهيبة في «ابنُ أختِ الساحر».

آل پيفِنسي:

بطرس پيفِنسي: الملك بطرس العظيم، الملك الأعلى

سوزان پيفِنسي: الملكة سوزان الرقيقة

إدمون پيفِنسي: الملك إدمون العادل

لوسي پيفِنسي: الملكة لوسي الباسلة

هؤلاء الأربعة من آل پيفِنسي، وهم أخوان وأختان، قدِموا إلى نارْنيا في زمان الشتاء الدائم إبَّان حكم الساحرة البيضاء، ومكثوا هناك سنين نارْنيانيَّة كثيرة، وأقاموا عصر نارْنيا الذهبي. وبطرس هو الأكبر سناً، تليه سوزان، ثُمَّ إدمون ولوسي. وهم جميعاً متواجدون في «الأسد والساحرة وخزانة الملابس»، وفي «الأمير كاسبيان». كذلك يظهر إدمون ولوسي أيضاً في «رحلة جوَّابة الفجر»، كما يظهر إدمون ولوسي وسوزان في «الحصان وصبيُّه»، فيما يظهر بطرس وإدمون ولوسي في «المعركةالأخيرة».

شصطى: يحيطُ سرٌ بهذا الولد الذي تبنَّاه صيَّاد سمكٍ من كالورمِن. فهو ليس الشخص الذي يبدو أنَّه هو، مثلما يكتشف هو نفسه في «الحصان وصبيه».

بري: هذا الجواد الحربي أيضاً فائقٌ للعادي. فقد اختُطِف وهو مُهرٌ من غاباتِ نارْنيا، وبيع حصاناً عبداً في كالورمِن، وهو بلدٌ واقعٌ وراء بلا أرخيا وفي أقصى جنوبي نارْنيا. وتبدأ مغامرات بري عندما يحاول الفرار في «الحصان وصبيُّه».

أرافيس: هي طرقانة، نبيلةٌ من كالورمِن. إلا أنَّ فيها مزايا خيِّرة كثيرة تبرز إلى النور في «الحصان وصبيُّه».

هُوِين: فرسٌ حسَّاسة حسنة الطباع، تتصادق مع أرافيس في «الحصان وصبيُّه».

الأمير كاسبيان: إنه ابن أخي الملك ميراز، ويُعرَف بلقب كاسبيان العاشر ابن كاسبيان، وهو ملك نارْنيا الحقيقي (ملك النارْنيانيِّين القدامى). كذلك يُعرَف بألقاب «تلماري نارْنيا»، و«سيِّد كيرپرافيل»، و«إمبراطور الجُزر المنفردة». وهو يظهر في «الأمير كاسبيان»، و«رحلة جوَّابة الفجر»، و«الكرسيُّ الفضي»، و«المعركة الأخيرة».

ميراز: هو تلماريٌ من بلاد تلمار الواقعة بعيداً ما وراء الجبال الغربية (وأجداد التلماريِّين أصلاً كانوا من عالمنا). وميراز هو مغتصب عرش نارْنيا في «الأمير كاسبيان».

ريبيتشيب: هو الفأر الرئيس. وهو الخادم المتواضع المتطوِّع لخدمة الأمير كاسبيان، ولعلَّه أكثر الفرسان بسالةً في نارْنيا كلِّها. فروسيَّتُه لا تُدانى، وكذلك شجاعته ومهارته في استعمال السيف. ويظهر ريبيتشيب في «الأمير كاسبيان»، و«رحلة جوَّابة الفجر»، و«المعركة الأخيرة».

يُسطاس كلارنس (صغرون): يُسطاس ابن خالةِ لأولاد آل پيفِنسي، يُضطر إدمون ولوسي أن يذهبا ويزوراه. إلّا أنه يجد نارْنيا أشبهَ بصدمةٍ. وهو يظهر في «رحلة جوَّابة الفجر»، و«الكرسي الفضيّ»، و«المعركة الأخيرة».

جِلّ پُول: هي البطلة في «الكرسي الفضّيّ»، تذهب إلى نارنيا مع يُسطاس في مغامرته النارْنيانيّة الثانية. وهي تأتي أيضاً لنجدة نارْنيا في «المعركة الأخيرة».

الأمير ريليان: ابن الملك كاسبيان العاشر. وهو الأمير الضائع في نارْنيا. فابحث عنه وجِدْه في «الكرسي الفضّيّ».

بِرْكهموم: ساكن مُستنقعات (سباخ) طويل القامة، من المُستنقعات الشرقية في نارْنيا. شخص طويل يشكّل سلوكه الرزين جداً قناعاً لقلبِه الصادق الوافر الشجاعة. يظهر في «الكرسي الفضيّ»، و«المعركة الأخيرة».

الملك تِريان: رجلٌ نبيلٌ وشجاع، آخر ملوك نارْنيا. هو وصديقه «جوهر»، أحادي القرن، يخوضان القتال معاً في «المعركة الأخيرة».

شِفطة: قردٌ عجوز وقبيح، ينوي أن يتولّى حكم نارْنيا، ويباشر أموراً لا يستطيع إيقافها في «المعركة الأخيرة».

لَغْزان: حمارٌ طيِّب لم ينوِ قطُّ إيذاء أحد. غير أنّه ليس ذكيّاً جداً. وهو يقع ضحيّة لخداع شِفطة في «المعركة الأخيرة».

المحتويات

الفصل الأوّل

الباب غير الصحيح

هذه قصّة عن أشياءَ حدثت من زمان بعيد، لمّا كان جدُّك ولداً صغيراً. وهي قصّة مهمّة جدًّا لأنّها تُبيِّنَ كيف بدأت جميع الاتّصالات في كِلا الاتّجاهَين بين عالَمِنا هذا وبلاد نارْنِيا.

في تلك الأيّام كان السيّد شرلوك هولمز ما زال يسكن في شارع بايكر، وآل باستابل يُفتّشون عن كنز في لوُيشام رود. ولو كنتَ ولداً يعيش في تلك الأيّام، لكان عليك أن تلبس كلَّ يوم زيًّا مدرسيًّا ذا قميص قاسي القَبّة؛ وقد كانت المدارس أسوأ من مدارس اليوم عادةً. ولكنّ وجبات الطعام كانت ألذ. أمّا الحلوى، فلن أقول لك كم كانت رخيصة وطيّبة، حتّى لا يسيلَ لُعابك بلا فائدة تُرجى. وفي تلك الأيّام كانت تعيش في لندن بنت اسمُها پولي پلامَر.

كانت پولي تسكن في بيتٍ ضمنَ صفٍّ طويل من البيوت المتّصلة بعضُها ببعض. وذات صباح كانت في الحديقة وراء البيت لمّا تسلّق صبيٌّ من حديقة الجيران

ووضع وجهه فوق السور. فتعجَّبت پولي كثيراً، لأنه حتّى ذلك الحين ما كان في ذلك البيت أيُّ أولاد، إذ لم يكن يسكن فيه سوى السيّد كِترلي والآنسة كِترلي، وهما أخ وأخت أعزبان كبيرا السنّ. ولذلك رفعت پولي رأسها لترى، وحبُّ الاستطلاع يملأ رأسها.

كان وجه الصبيّ الغريب وسخاً جدًّا. ولم يكن ممكناً أن يكون أوسخ من ذلك لو مرَّغ يديه في التُّراب ثمَّ بكى حتّى ذرف دموعاً غزيرة، ثمَّ مسح وجهه بيديه. وبالحقيقة، يبدو من المُرجَّح أن هذا ما كان قد فعله.

قالت پولي: «مرحَبا!»

فردَّ الصبيّ: «مرحبا! ما اسمُكِ؟»

فأجابت پولي: «پولي، وما اسمُكَ أنتَ؟»

فردَّ الصبيّ: «ديغوري».

فما كان منها إلا أن قالت: «اسمٌ غريب!»

فردَّ: «وپولي أغرب منه بكثير».

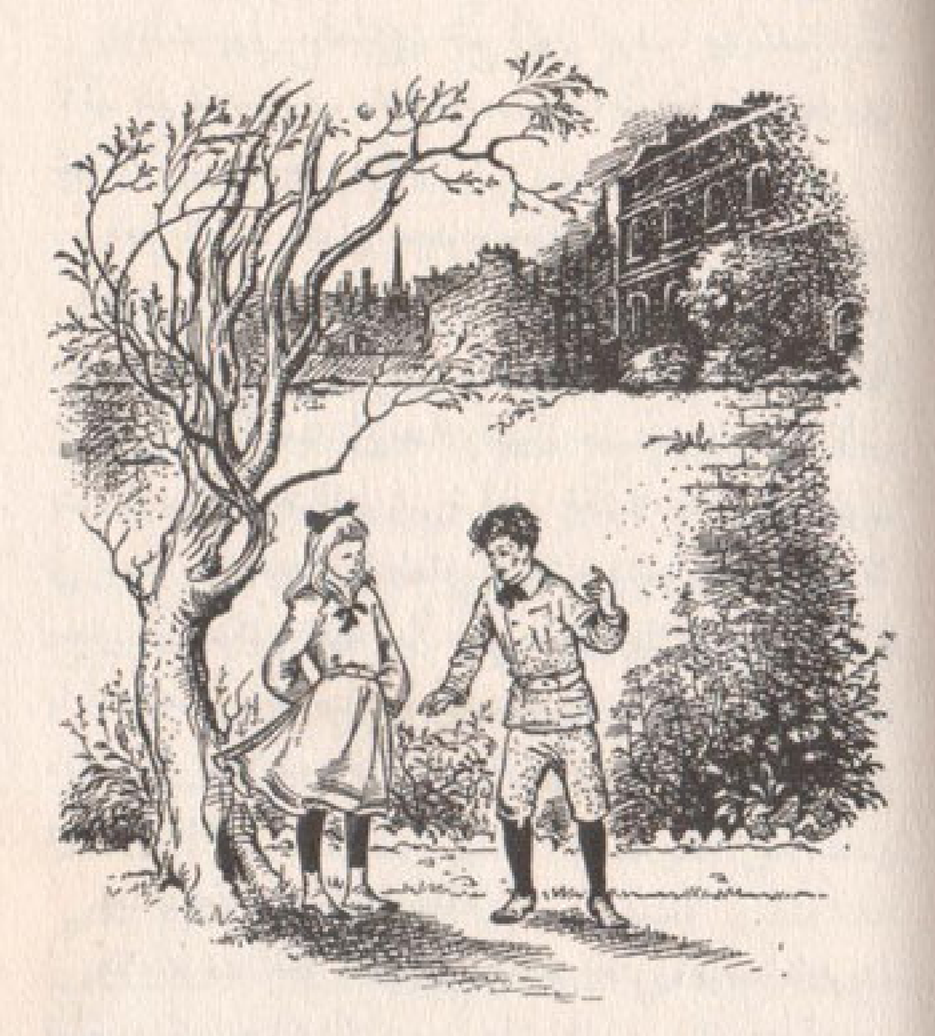
فأجابت: «صحيح!»

فقال: «لا، ليس تماما».

فردت پولي: «على كلّ حال، أنا أغسل وجهي. ويجب أن تفعل أنت ذلك، خصوصاً بعد ...» ثمَّ توقَّفت، بعدما كانت تنوي أن تقول: «بعد حفلة بكاء ثقيل»، ولكنَّها فكَّرت أنَّ ذلك أمر غير مهذَّب.

ثمَّ قال ديغوري بصوتٍ أعلى، كولد معذَّب جدًّا بحيث لم يعُدْ يهمُّه أن يُعرَف أنَّه كان يبكي: «صحيح،

كنتُ أبكي. وهكذا كنتِ تفعلين أنتِ لو عشتِ كلَّ حياتك في الجبال وكان عندكِ حصان صغير ونهر في أسفل البستان، ثمَّ جاؤوا بكِ لتعيشي في هذا المكان الحقير البغيض!»



فقالت پولي غاضبةً: «ليست لندن مكاناً بغيضاً!» ولكنَّ الصبيَّ كان في وضع لا يُمكِّنه من قبول أيِّ تعليقٍ أو ملاحظة منها، فتابع يقول: «ولو كان أبوك بعيداً في الهند،

واضطُررتِ أن تأتي وتعيشي مع خالةٍ وخال مجنون (مَن يحبُّ ذلك؟)، ولو كان السبب أنّهما يعتنيان بأمِك، وإذا كانت أمّك مريضة وسوف... تموت» ثمّ تغيّرت هيئة وجهه كمن يحاول أن يحبس دموعه.

فقالت پولي باتّضاع: «لم أكن أعرف، متأسّفة!» ثمّ لأنها لم تكد تعرف ماذا تقول، وأيضاً لِتُوجّه فكر ديغوري نحو الأمور المفرحة، سألته:

«هلِ السيّد كِترلِي مجنون حقًّا؟»

فقال ديغوري: «إمّا هو مجنون، وإمّا هناك سرّ. فعنده مكتب على سطح الطابق الأعلى، وتقول خالتي ليتيشيا إنّ عليّ ألّا أصعد إلى هناك أبداً. حسناً، إن هذا الأمر يثير الريبة. ثمّ هنالك شيءٌ آخر. فكلّما حاول أن يقول لي شيئاً عند تناوُل الطعام، تُسكِتَه دائماً، حتّى إنّه لا يحاول أن يتكلّم إليها أبداً. فهي تقول: «لا تُزعج الصبيّ، يا أندرو»، أو «أنا متأكِدَة أنّ ديغوري لا يريد أن يسمع ذلك»، أو «والآن، يا ديغوري، ألا ترغب أن تخرج وتلعب في الحديقة؟»

«ما الذي يريد أن يقولَه؟»

«لا أعرف. فهو لا يكمِل كلامه حتّى أعرف ما يريد قولَهُ. ولكن هناك أكثر من هذا. فذات ليلة — أو في الحقيقة، في ليلة البارحة – بينما كنت أمرُّ تحت درج العليّة ذاهباً إلى سريري (مع أنّي لا أهتمّ بالمرور من هناك أيضاً)، أنا متأكد أنني سمعتُ صرخةً».

«ربمّا يحبس هنالك زوجة مجنونة».

«نعم، فكّرتُ في ذلك».

«أو ربمّا كان مُزوِّر عملة».

«أو لعلّه كان قرصاناً، مثل ذلك الرجل في بداية قصّة 'جزيرة الكنز'. وهو مختبىء دائماً من رفقائه البحّارة القدامى».

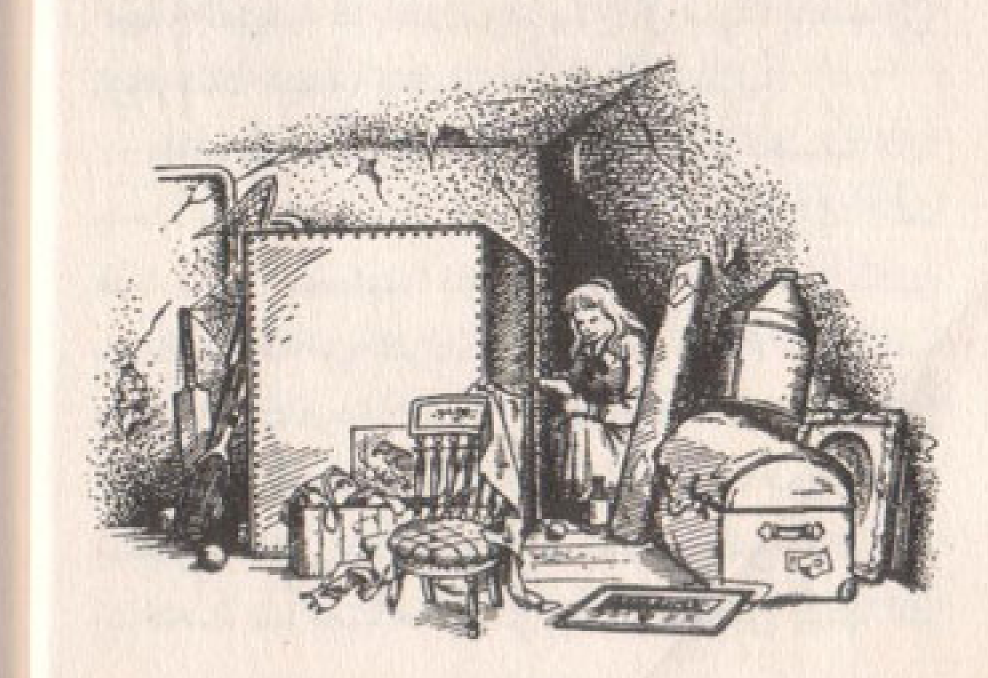
فقالت پولي: «يا له من أمر مشوّق! ما عرفت قطُّ أنّ بيتك مُمتع إلى هذا الحدّ».

فأجاب ديغوري: «قد تعتبرينه ممتعاً. ولكنّه لن يعجبك إذا كان عليكِ أن تنامي فيه. فهل يعجبكِ أن تستلقي مستيقظةً بانتظار وقْع خطوات الخال أندرو متسلّلاً إلى غرفتك عبر الممرّ؟ وكم عيناه مخيفتان!»

هكذا تعرّف پولي وديغوري أحدهما بالآخر. ولمّا كانت العطلة الصيفية قد بدأت، ولم يكُن أيٌّ منهما يذهب إلى البحر تلك السنة، كانا يتقابلان كلّ يوم تقريباً.

وقد بدأت مغامراتهما أساساً لأنّ ذلك الصيف كان واحداً من أكثر فصول الصيف رطوبةً ومطراً وبرداً منذ عدّة سنين. فجعلهما ذلك ينصرفان إلى القيام بكثير من الأمور داخل المنزل، ويمكنك القول: الاستكشاف داخل البيت. ومن المدهش ما يمكن أن تستكشفه على ضوء عقب شمعة في بيت كبير أو في صفٍّ من البيوت مُدهِش وعظيم. وكانت پولي قد اكتشفت من زمان أنكَ إن فتحتَ باباً معيّناً صغيراً في عِلّيَة الصناديق ببيتها تجد

خزّان الماء ومكاناً مظلماً وراءه يمكنك الدخول إليه بعد شيء من التسلّق الحَذِر. كان ذلك المكان المظلم يشبه نَفقاً طويلاً له حائطُ طوبٍ طيني من جهة وسطحٌ مائل من الجهة الأُخرى. وترامت من السقف أشعةُ نور ضئيلة من بين الألواح. ولم يكن لهذا النفق أرضٌ مرصوفة، فكان يجب أن تخطو من عارضة إلى عارضة، وليس بين العوارض شيءٌ غير الجصّ. فإذا داست قدمك على الجصّ، تقع عبر سقف الغرفة التي تحتها. وكانت پولي قد استعملت قسم النفق الموازي للخزّان كمغارةٍ لمُهرّبي البضائع، وأصعدت قطعاً من صناديق الخشب، ومقاعد كراسي المطبخ المكسورة، وأشياء من هذا النوع، ومدّتها من عارضة إلى عارضة لعمل أرضية للنفق. وهناك احتفظت بصندوق مدّخرات فيه كنوزٌ شتّى، وقصّة كانت تكتبها،



وبضعةُ تفّاحات عادةً. وغالباً ما كانت تشرب هناك قِنّينة من شراب الزنجبيل، حيث جعلت القناني الفارغة ذلك المكان أكثر شبهاً بكهف المُهرّبين.

أُعجِب ديغوري كثيراً بذلك الكهف (ولم تسمح له برؤية القصّة)، ولكنّه كان أكثر اهتماماً بالاستكشاف.

وقال ديغوري: «انظري هنا! ما طول هذا النفق؟ أعني: هل ينتهي عند حدود بيتك؟»

فقالت پولي: «لا، فالحيطان لا تصل إلى السطح خارجاً، بل تمتدّ بعيداً، ولا أعرف كم طولها».

«إذاً يمكننا أن ندخل على طول صفّ البيوت بكامله».

«نعم، قد يمكننا ذلك. ولكنّني أقول!»

«ماذا؟»

«يمكننا أن نعبر إلى داخل البيوت الأُخرى».

«نعم، ويمكن أن يحسبونا من اللصوص إذا وجدونا. لن نعبر، شكراً!»

«لا تكن ذكيًّا بزيادة. فقد كنتُ أُفكّر بالبيت المجاور لبيتك».

«وماذا عنه؟»

«إنّه البيت الفارغ. يقول أبي إنّه طالما كان فارغاً منذ انتقالنا إلى هنا».

فقال ديغوري: «أعتقد أنّ علينا أن نُلقي نظرة عليه إذاً»، وهو متحمّس أكثر جدًّا ممّا يبدو لك من طريقة كلامه. فإنّه بالطبع كان يفكّر - كما كنتَ لتفعل أنت -

بأسباب كون ذلك البيت فارغاً منذ زمنٍ طويل. وكانت پولي مثله أيضاً. وما قال أيٌّ منهما الكلمة «مسكون»، فيما شعر كِلاهما بأنّه من الجُبنْ ألا تُدعى الأمور بأسمائها ويُصرَّح بما يفكّرون به.

وأضاف ديغوري: «هل نذهب الآن ونُجرِّب؟»

فقالت پولي: «لنذهبْ!»

«لا تأتي معي إذا كنتِ لا تريدين».

«أنا عازمةٌ على ذلكَ، إن كنتَ أنت كذلك».

«وكيف لنا أن نعرف هل وصلنا إلى البيت التالي أو الذي بعده؟»

وقرّرا أنّ عليهما أن يخرجا إلى غرفة الصناديق ويمشيا عبرها خطوة خطوة، من عارضة إلى أُخرى. فذلك يعطيهما فكرة عن عدد العوارض في الغرفة الواحدة. ثمّ يضيفان نحو أربع للممرّ بين العلّيّتين، ومثل ذلك العدد أيضاً وصولاً إلى غرفة نوم الآنسة، وكذلك حتّى غرفة الصناديق. وبهذا يعرفان طول البيت. فعندما يعبران ضعفي تلك المسافة، يصلان إلى آخر بيت ديغوري. وأيّ بابٍ يدخلانه بعد ذلك يوصلهما إلى عليّة البيت الفارغ.

وهنا قال ديغوري: «ولكنْ لا أتوقّع أن يكون بالحقيقة فارغاً أبداً».

«ماذا تتوقّع إذاً؟»

«أتوقّع أن يكون أحدٌ يعيش هناك في السّر، ولا يدخل البيت أو يخرج منه إلا في الليل على ضوء مصباحٍ

خافت. ويمكن أن نكتشف عصابة من المجرمين اليائسين، فنحصل على جائزة. فمن السخف أن نقول إنّ بيتاً يبقى فارغاً هذه السنين كلّها إلا إذا كان هنالك سرٌّ ما».

فقالت پولي: «يقول أبي إنّ السبب هو مجاري الصرف التالفة».

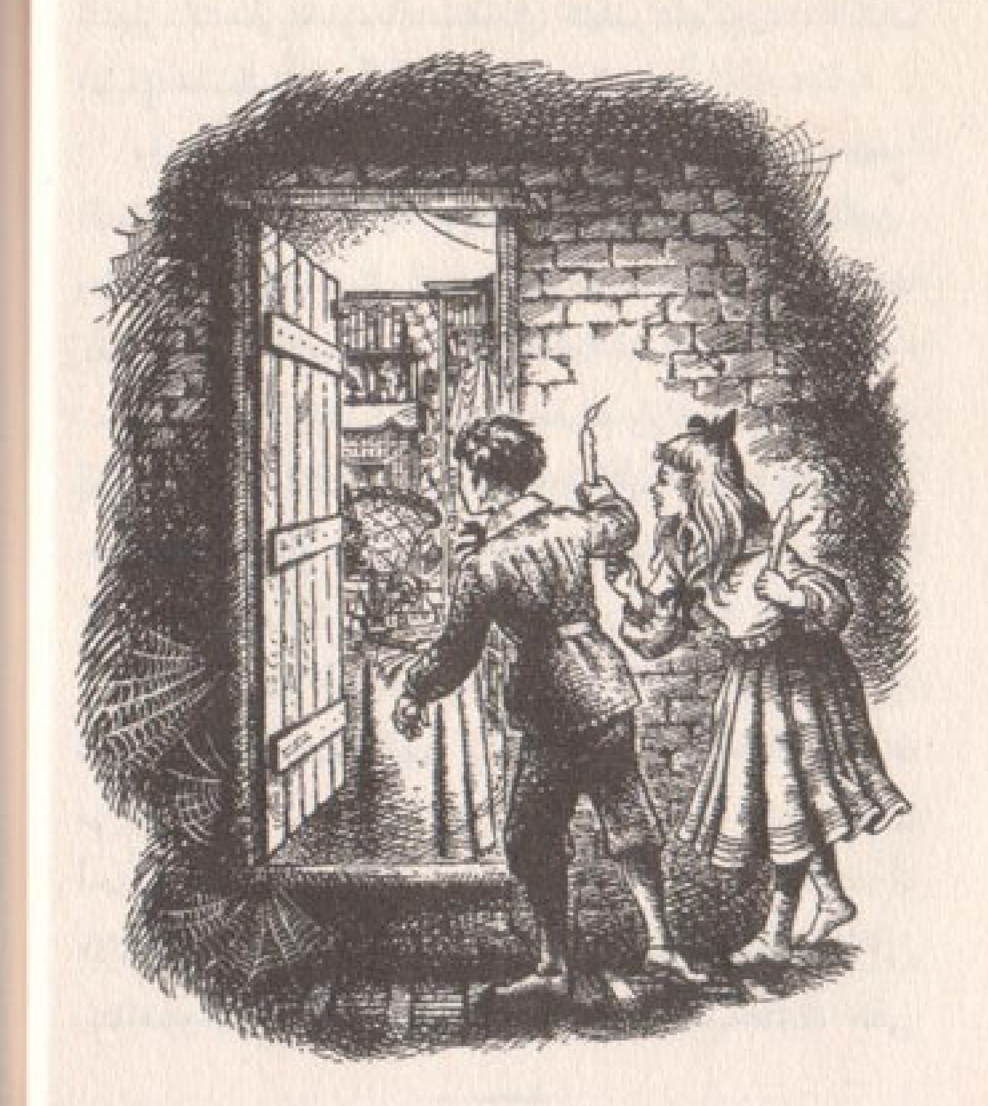
فردّ ديغوري: «غير معقول! فالكبار دائماً يفكّرون بتفسيرات لا تنفع». لأنهما كانا الآن يتحدّثان في وضح النهار، لا على ضوء الشمعة في كهف المهرّبين، بدا كون البيت مسكوناً من أضعف الاحتمالات.

ولمّا قاسا العلّيّة اضطرّا إلى إحضار قلم رصاص لجمع المسافات. في البداية حصلا على جوابين مختلفين. وحتى لمّا اتّفقا، أشك أن جوابُهما كان صحيحاً تماماً. فقد كانا على عجلة من أمرهما للبدء بالاستكشاف.

وبينما بدأا يتسلّقان من جديد وراء الخزّان، قالت پولي: «يجب ألّا نعمل أيّ ضجّة». ولأنّ الحدث كان مهماً جدًّا، فقد حمل كلٌّ منهما شمعة (كان عند پولي شمع كثير في كهفها).

كان الظلام شديداً، والغبار يملأ المكان، بالإضافة إلى الكثير من تيارات الهواء في المكان، ولذا أخذا يخطوان من عارضة إلى عارضة من دون كلام، إلّا عندما كان أحدهما يهمس للآخر: «نحن الآن مقابل بيتك»، أو «لا بدّ أن نكون قد وصلنا إلى نصف المسافة للوصول إلى بيتنا». وما وقع أيٌّ منهما، ولا انطفأت الشمعتان، حتّى

وصلا أخيراً إلى حيثُ رأيا باباً صغيراً في حائط القرميد إلى يمينهما. لم يكُن في هذا الجانب من الباب مزلاج ولا مقبض طبعاً، لأنَّ الباب صُنِع للدخول، لا للخروج. ولكنْ كان في الباب سقّاطة ذات لسانٍ (كتلك الموجودة غالباً داخل باب خزانة الملابس) شعرا بثقة بأنّهما يقدران أن يسحباها.



فسأل ديغوري: «أأسحبها؟»

قالت پولي: «أنا عازمةٌ على المغامَرة، إن كنتَ أنت كذلك»، مثلما قالت من قبل تماماً. وأحسَّ كلاهما أن الأمر يزداد جدية، ولكنْ لم يكن أيٌّ منهما ليتراجع. ثمّ سحب ديغوري السقّاطة بشيءٍ من الصعوبة. فانفتح الباب على وسعه، وطرفت أعينُهما من نور النهار المفاجىء. وصُدما كثيراً عندما وجدا أمامهما، لا علّيّة مهجورة، بل غرفة مفروشة. ولكنها كانت تبدو فارغةً، وكان الصمت يخيّم عليها، ولكن الفضول كان يسيطر على بولي، فتشجّعت وأطفات شمعتها ودخلتِ الغرفة الغريبة، بصوتٍ منخفض كصوت حركةِ فأرة.

طبعاً، كانت الغرفة تشبه العلّيّة بشكلها، ولكنّها مفروشة كأنّها غرفة جلوس. كان كلُّ جزء من الحيطان مُغطّى بالرفوف، وكلُّ جزء من الرفوف مليئاً بالكتب. وكانت نارٌ قد أُشعِلت في الموقد (أنت تذكر أنَّ ذلك الصيف كان شديد البرودة وكثير الأمطار)، وكان قدّام الموقد كرسيٌّ عالي الظهر ذو ذراعين، ظهرُه نحوهما. وبين الكرسيّ وپولي، على امتداد مُعظم وسط الغرفة، كانت طاولة كبيرة كُدِّست عليها أشياء من كلِّ نوع: كتب مطبوعة، وكتب مخطوطة ودفاتر، ومحابر وأقلام، وشمعُ أحمر للختم، وميكروسكوب. ولكنَّ ما لفت نظرها أولاً كان صينيّة خشبيّة حمراء لمّاعة عليها عدد من الخواتم. وكانت الخواتم زوجَين زوجين، خاتم أصفر مع خاتم أخضر،

ثمَّ مسافة صغيرة، ثمَّ خاتمٌ أصفر وخاتم أخضر آخران. لم تكن أكبر من الخواتم العاديَّة، ولم يكُن ممكناً أن يغفل أحد عن ملاحظتها، لأنَّها كانت لَمّاعة جدًّا. إنَّها كانت أجمل أشياء صغيرة برّاقة يمكنك تصوُّرها. ولو كانت پولي أصغر سنًّا، لكانت رغبت في وضع أحد تلك الخواتم في فمها!

كان الصمت مخيِّماً على المكان بحيث يمكنك أن تتنبَّه حالاً إلى تكتكة الساعة. ومع ذلك، لم يكن الصمت كلِّيًّا، كما تبيَّن لها سريعاً. فقد سُمع صوت هدير خافت جدًّا جدًّا. ولو كانت المكانس الكهربائية قد اختُرِعت في تلك الأيّام، لظنَّت پولي أنَّ ذلك صوت مكنسة كهربائية تعمل في مكان بعيد تفصلك عنه عدّة غرف وعدَّة طوابق في الأسفل. ولكنَّه كان صوتاً أجمل من ذلك بكثير، نغماً أكثر موسيقيّة، إلَّا أنَّه كان خافتاً جدًّا بحيث لا تكاد تسمعه.

أدارت پولي رأسها قليلاً وقالت لديغوري: «صحيح، لا أحد هنا». وكانت تتكلَّم الآن بصوت أعلى من الهمس قليلاً. وتقدَّم ديغوري يطرف بعينيه، وبدا أنَّه متَّسخ كثيراً، كما كانت پولي أيضاً.

قال ديغوري: «هذا لا ينفع. ليس البيت فارغاً أبداً. أفضل لنا أن ننصرف حالاً قبل أن يأتي أحد».

وقالت پولي مُشيرةً إلى الخواتم الملوَّنة: «ما هذه، باعتقادك؟»

فقال ديغوري: «أُوه، تعالي. كلَّما أسرعْنا كان...»

ولم يقدر أن يُنهي كلامه، لأنَّ شيئاً حدث تلك اللحظة. إذ إنَّ الكرسيَّ العاليَ الظهر مقابل النار تحرَّك فجأةً، ونهض عنه – كشيطان أخرس يطلع من بابٍ مسحور – شكلُ الخال أندرو المخيف. فهما لم يكونا في البيت الفارغ قطّ، بل كانا في بيت ديغوري، وفي المكتب الممنوع دخوله. وقال كِلا الولدين: «أووه!» وقد أدركا خطأهما الرهيب. وعلما أنَّه كان عليهما أن يعرفا من طول الطريق في النفق أنّهما لم يبتعدا مسافة كافية.

بدا الخال أندرو طويلاً ونحيفاً جدًّا. كان وجهه حليقاً، وأنفه دقيق الطرَف، وعيناه برّاقتين جدًّا، وشعره أشيب وأشعث وكثيفاً.

عقدت الدهشة لسان ديغوري، إذ بدا الخال أندرو مخيفاً أكثر بألف مرّة ممّا كان يبدو يوماً. ولكنَّ پولي لم تكن قد خافت مثله بعد، إلَّا أنَّ الخوف ما لبث أن استولى عليها. لأنَّ أوَّل ما عمله الخال أندرو هو أنَّه مشى نحو باب الغرفة، وأغلقَهُ، وأدار المفتاح في القفل. ثمَّ التفت، وحدَّق إلى الولدين بعينيه البرّاقتين، وابتسم فظهرت أسنانه كلُّها، وقال:

«حسناً! لن تقدر أُختي الحمقاء الآن على الوصول إليكما!»

كان ذلك التصرُّف لا يشبه في شيء ما تتوقَّعه من شخصٍ راشد. فانخلع قلب پولي، وأخذت تتراجع مع ديغوري نحو الباب الصغير الذي دخلا منه. ولكنَّ الخال

أندرو كان أسرع منهما. فوصل إلى ورائهما وأقفل ذلك الباب أيضاً، ووقف قدّامه. ثمَّ فرك يديه وطقطق أصابعه، وقد كانت أصابعُهُ طويلة جدًّا وبيضاء بياضاً جميلاً. وقال:

«أنا مسرور برؤيتكما. فما أحتاجُهُ فعلاً هو ولدين!»

فقالت پولي: «رجاءً، سيّد كِترلي. حان وقت العشاء، ويجب أن أعود إلى بيتي. فهلاّ تسمح لنا بالخروج من فضلك!»

قال الخال أندرو: «ليس الآن. هذه فرصة أطيب من أن نضيّعها. كنتُ أريد ولدين. تَريان أنّني في وسط إختبار علمي عظيم. لقد جرَّبته على خنزير* هنديّ صغير، ويبدو أنه نجح. ولكنَّ الخنزير الهنديّ لا يستطيع أن يقول لك شيئاً بعد ذلك؛ ولا يمكنك أن تشرح له كيف يرجع إلى هنا».

فقال ديغوري: «انظر إلينا، يا خالي أندرو. إنَّه وقت العشاء فعلاً، وسيبدأون بالبحث عنا بعد لحظات. يجب أن تدعنا نذهب».

قال الخال أندرو: «يجب؟»

ونظر ديغوري وپولي أحدهما إلى الآخر. لم يتجرّأا أن يقولا شيئاً، ولكنَّ نظراتهما كانت تعني: «أليس هذا مُخيفاً؟» وأيضاً «علينا أن نُلاطفه».

* الخنزير الهندي: حيوان صغير من فصيلة القوارض. أكبر من الفأر بقليل، وقد يراه البعض أحد أنواع الفئران.

ثمَّ قالت پولي: «إذا سمحت لنا بالذهاب الآن، نقدر أن نرجع بعد العشاء».

فقال الخال أندرو وهو يبتسم ابتسامةً خبيثة: «ولكنْ كيف أتأكَّد أنكما سترجعان؟» مبتسماً ابتسامة خبيثة. ثمَّ ظهر أنَّه غيَّر رأيه، إذ قال:

«طيِّب، طيِّب. إن كان يجب أن تذهبا، فأعتقد أنَّه يجب... فلا أتوقَّع من صغيرين مثلكما أن يجدا متعةً كبيرة في محادثة عجوز غريب مثلي». وتنهَّد ثمَّ أضاف: «لا فكرة عندكما كم أشعر بالوحدة أحياناً. ولكن لا يهمّ. فاذهبا وتعشَّيا. ولكنْ عليَّ أن أعطيَكما هديَّة قبل أن تذهبا. فأنا لا أرى في كلّ يوم بنتاً صغيرة في مكتبي القديم الباهت المُمِل، وخصوصاً - إذا جاز لي القول - صبيّة حسناء مثلك».

وبدأت پولي تفكرّ أنَّه ربَّما لم يكن مجنوناً فعلاً.

ثمَّ قال الخال أندرو لپولي: «هل تحبين أن تأخذي خاتماً، يا عزيزتي؟»

فقالت پولي: «أتقصد أحد هذه الخواتم الصفراء أوالخضراء؟ هذا لطفٌ منك!»

قال الخال أندرو: «ليس واحداً أخضر. أعتقد أنّني لا أقدر أن أتخلّى عن الخُضر. ولكن يسرُّني أن أُعطيَكِ أيَّ واحد من الصُّفر، مع محبتي. فتعالَي وجرِّبي واحداً».

عندئذٍ تغلّبت پولي على رعبها إلى حدٍ بعيد، وتأكَّد لها أنَّ هذا الرجل المُسنّ ما كان مجنوناً. وكان في تلك

الخواتم البرّاقة شيءٌ جذّاب على نحوٍ غريب، فتقدّمت نحو الصينيّة.

ولكنّ پولي قالت فجأةً: «ما هذا؟ أعتقد أن صوت الهمهمة أو الهدير صار أعلى هنا. يبدو كأنّ الصوت يصدر من الخواتم!»

فقال الخال أندرو: «يا لها من تخيُّلات غريبة، يا عزيزتي»، ضاحكاً ضحكة ظهرت طبيعيّة جدًّا. ولكنّ ديغوري لمح على وجه الخال نظرة تشوُّق، بل تكاد تكون نظرة طمع وجشع. فصرخ: «پولي، لا تكوني غبيّة! لا تلمسي الخواتم».

ولكنْ كان الأوان قد فات. فبينما هو يتكلّم، امتدّت يد پولي لتلمس أحد الخواتم. وفي الحال، بلا ومضة ولا ضجّة ولا إنذار من أيّ نوع، لم تعُد پولي موجودة! وصار ديغوري وخاله وحدهما في الغرفة.

الفصل الثاني

ديغوري وخاله

كان الأمر مفاجئاً جدّاً، ومختلفاً اختلافاً رهيباً عن أيّ شيء حدث لديغوري ولو في كابوسٍ ليليّ، حتّى أطلق صرخةً هائلة. وفي الحال وضع الخال أندرو يده على فم ديغوري وهسّ في أُذنه: «إيّاك إيّاك! إذا بدأت تعمل ضجّة، فستسمعها أُمُّك. وأنت تعرف كم يمكن أن يرعبها هذا».

وكما قال ديغوري في ما بعد، فإنّ الدناءة البشعة في معاملة فتًى بتلك الطريقة كادت تُصيبه بمرض. لكنّه طبعاً لم يصرخ ثانيةً.

وقال الخال أندرو: «هذا أفضل. ربّما لم تقدر أن تمنع نفسك من الصراخ. فهي صدمة أن ترى شخصاً يختفي أوّل مرّة. أوه، لقد دُهشتُ أيّ دهشة لمّا اختفى الخنزير الهنديُّ قبل البارحة!»

فسأله ديغوري: «أكان ذلك لمّا زعقتَ؟»

«هل سمعت تلك الزعقة؟ أرجو أنّك لم تكن تتجسّس عليّ!»

فقال ديغوري ساخطاً: «لا، لم أكن أتجسّس! ولكنْ ماذا حدث لپولي؟»

أجاب الخال أندرو وهو يفرك يديه: «هنّئني، يا صغيري العزيز. نجح اختباري! لقد اختفت البنت الصغيرة... رحلت حالاً من هذا العالم».

«ماذا فعلتَ بها؟»

«أرسلتُها إلى... إلى مكان آخر».

فسأل ديغوري: «ماذا تعني؟»

فقعد الخال أندرو وقال: «حسناً، سأُخبرك بكلّ شيء عن هذا. هل سمعت مرّةً عن السيّدة لِيفاي العجوز؟»

أجاب ديغوري: «أما كانت أُخت جدّك أو جدّتك أو شيئاً كهذا؟»

فقال الخال أندرو: «ليس تماماً. كانت عرّابتي*. وتلك صورتُها هناك على الحائط».

والتفت ديغوري فرأى صورة باهتة، فيها وجه امرأة على رأسها قبّعة قديمة الطراز. ثمّ استطاع أن يتذكّر أنّه رأى مرّةً صورةً للوجه نفسه في جارور عتيق ببيتهم في الريف، وسأل أُمّه عنها، فظهر له أنّها لا تريد أن تتحدّث عن الموضوع كثيراً. لم يكن وجهاً جميلاً، ولكنّ ديغوري فكّر أنّه من الصعب طبعاً أن يعرف الإنسان الحقيقة في

* العرّاب: كفيل المعتمد الذي من المفترض أن يهتم بحياتِهِ خاصة الروحية.

تلك الصُوَر العتيقة. ثمّ سأل: «هل كان – ألم يكن – من شيء خطأ فيها، يا خالي أندرو؟»

فأجاب الخال أندرو بضحكةٍ خافتة: «حسناً، الأمر يتعلّق بما ندعوه 'خطأ'. فالنّاس صغار العقول. وبالحقيقة، كانت غريبة الأطوار في آخر حياتها، وعملت حماقات كثيرة. لذلك حبسوها».

«هل تعني في مستشفى الأمراض العقليّة؟»

فأجاب الخال أندرو بصوتٍ مترجرج: «لا، لا... لا شيء من ذلك، بل في حبسٍ فقط».

قال ديغوري: «قُل لي، ماذا فعلَت؟»

فقال الخال أندرو: «يا لها من امرأة مسكينة! كانت قليلة الحكمة. وكان هناك أمور كثيرة مختلفة. لا داعي للدخول في ذلك كلّه. إنّها كانت دائماً لطيفة معي».

«ولكنْ، ما دَخل هذا كلّه بپولي؟ أتمنّى لو أنّك...»

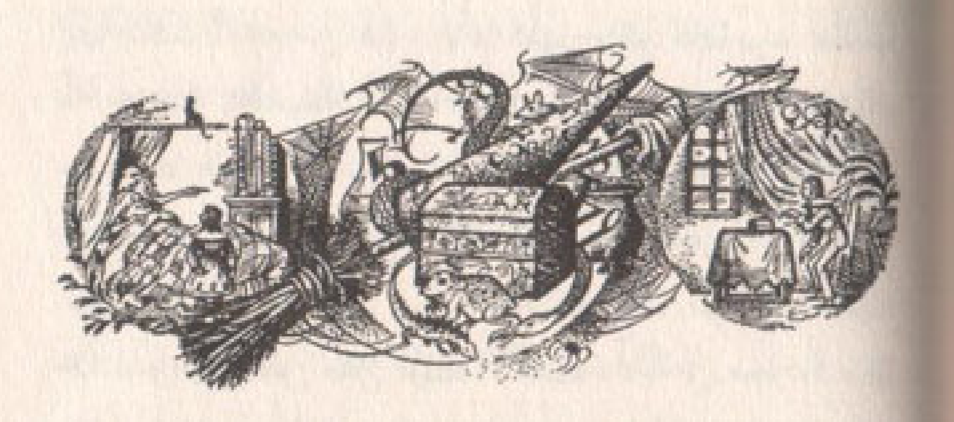
«كلّ شيء في وقته، يا بُنَيّ. أطلَقوا سراح السيدة ليفاي العجوز قبل موتها، وكنتُ أنا واحداً من القليلين الذين سمحَتْ لهم برؤيتها في مرضها الأخير. كانت تكره الناس العاديّين الجَهَلة، وأنت تفهم هذا. وأنا أيضاً أكرههم. لكنّنا أنا وهي كنّا نهتمّ بأشياء متشابهة. إنّما قبل موتها بأيّام قليلة طلبَت منّي أن أذهب إلى مكتب قديم في بيتها وأفتح جاروراً سرّياً وأجلب لها صندوقة صغيرة أجدها هناك. ولحظةَ أمسكت الصندوقة بيدي، قدرتُ أن أعرف من تنميل أصابعي أنّ في يديّ سرّاً عظيماً. وهي أعطتني الصندوقة

وطلبت أن أعِدَها بأنّني، حالما تموت، أحرقها دون فتحها وأجري طقوساً معيَّنة. ولكنّني لم أفِ بهذا الوعد».

فقال ديغوري: «إذاً، كان تصرُّفك هذا قبيحاً بالفعل!»

أجاب الخال أندرو وقد ظهرت على وجهه ملامح الدهشة: «قبيحاً؟ إنّني أفهم قصدك. فأنتم الصغار تعرفون أنَّ عليكم الوفاء بوعودكم. وهذا صحيح جدًّا، بل مناسبٌ تماماً، وأنا مسرور لأنكم تتعلّمون ذلك. ولكنْ يجب عليك طبعاً أن تفهم أنَّ مثل هذه القواعد والأصول - مهما كانت ممتازة للصبيان الصغار والخدّام والنساء وعامّة الناس أيضاً - لا يمكن أبداً أن نتوقّع انطباقها على التلاميذ الأذكياء والمفكّرين العظماء والحكماء. لا، يا ديغوري. فأشخاص مثلي، عندهم حكمة عميقة خفيّة، أحرارٌ من القواعد والأصول العامّة، مثلما نحن منقطعون عن المسرّات العادية في الحياة. فمصيرنا، يا بُنيّ، مصيرٌ عظيم وفريد».

ولمّا قال هذا تنهّد، وبدا جادًّا ونبيلاً وغامضاً حتّى اعتقد ديغوري لحظةً أنّه كان يقول شيئاً حسناً بالفعل. لكنّه عاد فتذكّر الملامح القبيحة التي رآها قبل قليل على وجه خاله لحظةَ اختفاء پولي. وفي الحال رأى ما وراء كلمات الخال أندرو العظيمة. فقال لنفسه: «كلُّ ما يعنيه هذا أنّه يقدر أن يعمل أيَّ شيء يرغبه للحصول على أيِّ شيء يريده».



وتابع الخال أندرو يقول: «طبعاً، ما استجرأتُ أن أفتح الصندوقة مدّة طويلة، لأنّي عرفت أنّها ربّما تحتوي على شيء خَطِر جدًّا. لأنَّ عرّابتي كانت امرأة مشهورة جدًّا. فبالحقيقة، كانت واحدة من آخر البشر في هذا البلد ممّن يسري في عروقهم دمُ جنّيّة. (قالت إنه كان في زمانها اثنتان غيرها: واحدة أميرة والأخرى شغّالة.) وبالحقيقة، يا ديغوري، إنك تتحدّث الآن (ربّما) مع آخِر رجل كانت عرّابتُه جنّيّة فعلاً. ها هو شيء تتذكّره أنت أيضاً حين تصير شيخاً!»

ففكّر ديغوري: «أنا متأكد أنّها كانت جنّيّة شرّيرة»، ثمّ أضاف بصوتٍ مرتفع: «ولكنْ ماذا جرى لپولي؟»

فقال الخال ديغوري: «يا لكثرة ثرثرتك عن هذا! وكأنَّ هذا هو المهمّ! لقد كانت مهمّتي الأولى بالطبع أن أتفحّص الصندوقة نفسها. فقد كانت عتيقة جدًّا. وكان لي، حتّى في ذلك الحين، عِلمٌ كافٍ لأتأكّد أنّها لم تكن إغريقيّة، ولا مصريّة، ولا بابليّة، ولا حثّيّة، ولا صينيّة.

إنّها كانت أقدم من هذه الأمم كلّها. وكم كان يوماً عظيماً لمّا عرفت الحقيقة أخيراً! فالصندوقة كانت أطلنتيّة، مصدرها جزيرة أطلنتِس المفقودة. ومعنى هذا أنّها أقدم بقرون من أيّ شيءٍ يعود إلى العصر الحجريّ والأشياء التي يُنقّبون عنها في أوروبا. لكنّها أيضاً لم تكن شيئاً خشناً وغير مُتقَن مثل تلك الأشياء. لأنّه في فجر الزمان بالذات كانت أطلنتِس قد صارت مدينة كبيرة فيها قصور ومعابد وعُلماء».

ثمّ توقّف لحظةً وكأنّه توقّع أن يقول ديغوري شيئاً. ولكنّ ديغوري كان يزداد في كل لحظةٍ نفوراً من خاله، فلم يقُل كلمة واحدة.

وتابع الخال أندرو كلامه قائلاً: «في ذلك الوقت، تعلّمتُ أشياء كثيرة، بطُرق أُخرى، ممّا يتعلّق بالسحر عموماً (ومن غير المناسب أن أشرحها لولدٍ صغير). معنى هذا أنّني كوّنتُ فكرة كافية عن الأشياء التي قد تحتوي الصندوقةُ عليها. وباختباراتٍ مختلفة، ضيّقتُ دائرة الاحتمالات. وكان يجب أن أتعرّف ببعض الأشخاص الشيطانيّين الغريبي الأطوار، وأن أجتاز أيضاً بعض الاختبارات والتجارب المزعجة جدًّا. ذلك هو ما شيّب رأسي. فالإنسان لا يصير ساحراً بغير ثمن. وأخيراً انهارت صحّتي. لكنّني تحسّنت. وفي الأخير علمتُ بالفعل...»

ومع أنّه في الواقع لم يكن هناك أيّ احتمال أن يسمع أحدٌ حديثهما، ولو صدفةً، فقد انحنى إلى الأمام متابعاً

كلامه بما يشبه الهمس الخفيف: «أن الصندوقة الأطلنتيّة كانت تحتوي على شيءٍ جُلِب من عالَم آخر عندما كان عالَمُنا في بداياته».

فسأله ديغوري: «ماذا؟» وقد صار الآن مهتمًّا غصباً عنه.

فأجاب الخال أندرو: «لا شيء غير التراب. تراب ناعم ناشف. شيء لا يستحقُّ أن تنظر إليه كثيراً. شيء لا ترغب في إطلاع الآخرين عليه بعد عُمرٍ من الشقاء، كما يمكن أن تقول. ولكنْ لمّا نظرت إلى ذلك التراب (وقدِ انتبهتُ جيّداً ألّا ألمسه) وفكّرتُ أنّ كلّ حبّة منه كانت قديماً في عالم آخر... لا أعني في كوكب آخر، كما تعلم؛ فالكواكب جزء من عالمِنا هذا، وأنت تقدر أن تصل إليها إذا سِرتَ كفاية، بل في عالَمٍ آخر فعلاً، طبيعة أُخرى، كونٍ آخر، مكانٍ لا يمكنك الوصول إليه أبداً ولو سافرتَ عبرَ فضاء هذا الكون إلى أبد الآبدين؛ في عالمٍ لا يمكن الوصول إليه إلّا بالسحر، حسناً!»

وهنا فرك الخال أندرو يديه حتّى طقطقت أصابعه كالمفرقعات.

ثمَّ تابع يقول: «علمتُ أنَّ ذلك التراب، إذا قدرتَ أن تصنع منه الشكل المطلوب، يأخذك إلى المكان الذي جاء منه. ولكنَّ الصعوبة كانت في إعطائه الشكل الصحيح. واختباراتي الأولى كلُّها كانت فشلاً بفشل. وقد جرَّبتها على الخنازير الهنديَّة، فمات بعضها موتًا، وانفجر بعضها كالقنابل الصغيرة...»

وهنا قال ديغوري: «كان أمراً قاسياً حقاً أن تفعل ذلك!» متذكِّراً أنَّه اقتنى مرَّة خنزيراً هنديًّا خاصًّا به.

فقال الخال أندرو: «كيف تظلُّ تخرج عن الموضوع! فتلك المخلوقات كانت مُعدَّة لذلك. وأنا نفسي اشتريتُها. دعني أرَ أين كنت؟ أوه، نعم. أخيراً نجحت في صنع الخواتم، الخواتم الصُّفر. ولكنْ ظهرت صعوبة أُخرى. فقد كنت متأكِّداً تمامًا من أنَّ الخاتم الأصفر يبعث أيَّ مخلوق يلمسه إلى المكان الآخر. ولكنْ ما نفع ذلك إذا كنتُ لا أقدر على إعادته ليخبرني بما وجدَه هناك؟»

فسأله ديغوري: «وكيف تكون حالُهم؟ سيكونون في حالةٍ بائسة ومزرية إذا لم يقدروا أن يرجعوا؟»

أجاب الخال أندرو وقد بدا عليه شيءٌ من نفادِ الصبر: «ستظلُّ تنظر إلى كلِّ شيء من الزاوية غير الصحيحة. ألا تفهم أنَّ هذا اختبار علمي عظيم؟ فالهدف من إرسال أيِّ شخص إلى المكان الآخر هو أنِّي أُريد أن أعرف حقيقة ذلك المكان».

«حسناً، لماذا لم تذهب بنفسك إذاً؟»

وبالكادِ كان ديغوري قد رأى أحدًا مصعوقاً وغاضباً مثلما بدا خاله عندما سأله هذا السؤال البسيط. إذ قال متعجِّباً: «أنا؟ أنا؟ لا شكَّ أنَّ الصبيَّ مجنون! كيف يُغامِر رجلٌ في مثل عمري وصحَّتي بالصدمة والأخطار المُرافِقة للانتقال فجأةً إلى كونٍ آخر؟ لم أسمع يوماً في حياتي بمثل هذا الأمر الغريب العجيب المنافي للعقل! هل تدري ما تقول؟ فكِّر في ما يعنيه 'عالَمٌ آخر'... يمكن أن تُلاقي أيَّ شيء، أيَّ شيء».

فقال ديغوري وقد احمرَّ خدَّاه غضباً: «وأعتقد أنَّك أرسلت بولي إلى هُناك! فكلُّ ما أقوله، ولو كنتَ خالي، أنَّك تصرَّفت مثلما يتصرَّف الجبان، بإرسالك بنتاً إلى مكانٍ تخاف أنت أن تذهب إليه».

فقال الخال أندرو، ضارباً الطاولة بيده: «سكوتاً، يا سيِّد! لن أقبل أن يُكلِّمني هكذا صبيٌّ صغير قذِر من تلامذة المدارس الأغبياء. أنت لا تفهم. فأنا العالِم العظيم، الساحر، الماهر، مَن يُجري الاختبار. وبالطبع، أحتاج إلى مَن أُجري الاختبار عليهم. يا إلهي! ستقول لي بعد هذا إنَّه كان عليَّ أن أطلب الإذن من الخنازير الهنديَّة قبل استخدامها! لا يمكن الوصول إلى أيِّ حكمة عظيمة من دون تضحية. ولكن فكرة ذهابي بنفسي مضحكة. إنها مثل الطلب من جنرال أن يحارب كجنديٍّ عاديّ. افترضْ أنَّني قُتِلت، فما مصير تعب عمري كُلِّه؟»

قال ديغوري: «أوّه، كُفَّ عن الثرثرة! أتنوي أن تُعيد بولي إلى هُنا أم لا؟»

أجاب الخال أندرو: «كنتُ سأقول لك، لمّا قاطعتني بقلّة أدب، إنّني وجدتُ أخيراً طريقةً للقيام برحلة العودة: فالخواتم الخُضر تُرجِعك».

«ولكنْ ليس لدى بولي خاتم أخضر».

فقال الخال أندرو: «لا»، مبتسماً ابتسامة قاسية.

وصاح ديغوري: «إذاً، لا تقدر أن ترجع. فكأنّك قتلتَها!»

«بَل تقدر أن ترجع، إذا ذهب أحد وراءها، واضعاً في إصبعه خاتماً أصفر، وحاملاً خاتمين أخضرين، أحدُهما لإرجاع نفسه والآخر لإرجاعها هي».

عندئذٍ تنبّه ديغوري بالطبع إلى الفخّ الذي علق به، فحدّق إلى خاله أندرو، فاتحاً فمه بغير أن ينطق بكلمة، وقد اصفرّ خدّاه جدًّا.

فقال الخال أندرو إذ ذاك بصوتٍ قويٍّ وعالٍ، كما لو كان رجُلاً صالحاً أعطى أحدهم بقشيشاً كبيراً ونصيحةً جيّدة: «أرجو، أرجو يا ديغوري، ألّا يستولي عليك الجبنَ والخوف! يُحزنني كثيراً أن أفكّر بأنّ فرداً من أفراد عائلتنا ينقصه الشرف والمروءة ليهبَّ لمساعدة سيّدة في ورطة».

فقال ديغوري: «أطبِق فمك! لو كان عندك أيُّ شرف وكلُّ ذلك، لذهبتَ أنت بنفسك. ولكنّي أعرف أنّك لن تذهب. حسناً، أرى أنّ عليّ أن أذهب. لكنّك وحش!

أعتقد أنّك رسمت هذه الخُطّة كلّها، بحيث تذهب وهي لا تدري، ثُمّ أُضطرُّ أنا إلى اللحاق بها».

«طبعاً»، قالها الخال أندرو بابتسامته البغيضة.

«طيّب، طيّب. سأذهب. ولكنْ هناك شيء لديّ رغبة شديدة أن أقوله أوّلاً. لم أكُن أُصدّق بوجود السحر قبل اليوم. والآن أرى أنّه موجودٌ فعلاً. فإذا كان الأمر كذلك، أعتقد أنّ كلّ قصص الجنّيّات صحيحة تقريباً. وما أنت إلّا ساحر شرّير ظالم مثل أولئك الذين يظهرون في تلك القصص. إنّما لم أقرأ قطّ قصّةً لا يُجازى فيها مثلُ أولئك أخيراً، وأنا متأكّد أنك ستُلاقي مصيراً سيّئاً كما تستحقّ».

بين كلّ ما قاله ديغوري، كان هذا أوّل كلامٍ نفذ إلى الصميم. فقد بدت على وجه الخال أندرو مسحة رعب تكاد تجعلك تشفق عليه مع أنّه يظهر متوحّشاً. ولكن ما لبث أن بسط وجهه وقال بضحكة شبه مصطنعة: «حسناً، حسناً، أظنُّ أنّه طبيعيٌّ أن يفكّر الولد الذي يتربّى بين النساء مثل تفكيرك. حكايات عجائز، إيه؟ لا أظنُّ أنّ عليك أن تقلق من جهة خطري، يا ديغوري. ألا يكون أفضل أن تقلق بشأن الخطر الذي يواجه صديقتك الصغيرة؟ فهي ذهبت منذ مدّة، وإن كان هنالك من أخطار قد تواجهها، يكون من العيب عليك أن تصل متأخّراً ولو لحظةً واحدة».

فقال ديغوري بحزمٍ: «كم تهتمّ! لكنّي ضجرتُ من هذه الثرثرة. قُل لي ماذا يجب أن أعمل؟»

فأجاب الخال أندرو ببرودة: «عليك بالفعل أن تتعلَّم السيطرة على أعصابك، يا بُنيّ. وإلّا، كبرت لتصير مثل خالتك لِتّي. فأصغِ إليّ الآن».

ثم قام، ولبس قُفّازين، ومشى صوب الصينيّة التي عليها الخواتم. وقال: «لا تعمل هذه الخواتم عملها إلّا إذا لامست جلدك فعلاً. فعندما ألبس قُفّازين، أستطيع أن ألتقطها - هكذا - ولا يحدث لي شيء. وإذا حملتَ واحداً في جيبك، لا يحصل شيء. إنّما عليك طبعاً أن تنتبه حتّى لا تضع يدك في جيبك وتلمسه صدفة. فحينما تلمس خاتماً أصفر، تختفي حالاً من هذا العالم. وعندما تصير في المكان الآخر، أتوقّع - طبعاً لم يجرّب ذلك أحد، ولكنّي إنّما أتوقع - أنّك حينما تلمس خاتماً أخضر تختفي حالاً من ذلك العالم وتظهر من جديد في هذا العالم، كما أتوقّع. والآن أتناول هذين الأخضرين وأضعهما في جيبك الأيمن. فتذكَّرْ جيدًا أين الأخضران: إنّهما في الجيب الأيمن. وواحد منهما لك، والآخر للبنت الصغيرة. والآن اختر خاتماً أصفر لك. يجب عليّ أن أضعه في إصبعك. فلو كنتُ مكانك لاخترتُ عمل ذلك، حتّى تكون إمكانيّة إسقاطه أقلّ».

وإذ همّ ديغوري بالتقاط الخاتم الأصفر، راجع أفكاره فجأةً، وقال: «تطلّعْ إليّ! ماذا ستفعل أُمّي؟ افترض أنها سألتْ عنّي؟»

فقال الخال أندرو بحماسة وسرور: «كلّما أسرعتَ في الذهاب، تُسرع في الرجوع».

«ولكنّك لا تعرف هل أقدر أن أرجع فعلاً».

فهزّ الخال أندرو كتفيه، ومشى إلى الباب، ثم أدار المفتاح، وفتحه على وسعه، قائلاً: «جيّد جدًّا إذاً. مثلما تريد. اذهب وتعشّ، واتركِ الفتاة الصغيرة حتّى تفترسها الوحوش، أو تغرق أو تجوع في العالم الآخر، فلا ترجع أبداً، إن كان هذا ما تُفضّله. لا فرق عندي! وربّما كان عليك قبل وقت احتساء الشاي أن تمرّ بالسيّدة پلامَر وتشرح لها بأنّها لن ترى ابنتها مرّة أُخرى، لأنّك خفت أن تضع في إصبعك خاتماً».

عندئذٍ قال ديغوري: «أقسِم أنني أتمنّى لو كنتُ أكبر حتّى ألكم رأسك لكمةً قاضية!»

ثمّ زرّر سترته، وأخذ نَفَساً عميقاً، والتقط الخاتم. وحينئذٍ فكّر، كما صار يفكّر بعد ذلك دائماً، أنّه لم يكن أمامه خيار مُشرّف ومقبول آخر.

الفصل الثالث

الغابة بين العوالم

اختفى الخال أندرو ومكتبُه في الحال. ثُمَّ تلخبط كلُّ شيء إلى حين. ولم يعرف ديغوري بعد ذلك إلا أنّه كان هناك ضوء أخضر لطيف يأتيه من فوق، فيما كان الظلام يعمُّ من تحت. لم يظهر أنّه واقف على أيِّ شيء، ولا قاعد، ولا نائم. ولم يظهر أن شيئاً كان يلمسه، حتّى إنّه قال: «أعتقد أنّني في الماء، أو تحت الماء». وأخافه هذا لحظةً، لكنّه في الحال تقريباً قدر أن يشعر أنّه يندفع صعوداً. ثمّ طلع رأسه إلى الهواء فجأةً، ووجد نفسه زاحفاً إلى الشاطىء، على أرضٍ فيها عشب عند حافَة بِركة.

ولمّا وقف على رجليه، لاحظ أنّه لم يكن الماء يقطر منه، ولا كان يلهث لالتقاط أنفاسه كما يتوقّع أيُّ شخصٍ كان تحت الماء. فثيابه كانت ناشفة تماماً، وهو واقف عند حافة بِركة صغيرة، لا تتجاوز الثلاثة أمتار من جانب إلى جانب آخر، في وسط غابة. كانت الأشجار متلاصقة وكثيرة الأوراق بحيث منعته أن يلمح الفضاء. وكان الضوء كلّه نوراً أخضر يتخلّل الأوراق، ولكنْ لا بدّ أنّ

الشمس كانت مُشرِقة جدًّا في الأعالي، لأنّ ضوءَ ذلك النهارِ الأخضرَ كان برّاقاً ودافئاً. وكانت تلك أهدأ غابة يمكنك أن تتصوّرها. فلم يكُن فيها طيور ولا حشرات ولا حيوانات ولا رياح. وكنتَ تكاد تحسُّ الأشجار وهي تنمو. ولم تكن البركة التي خرج منها ديغوري منذ قليل هي البركة الوحيدة، بل كان هناك عشرات غيرها: بِركةٌ كلَّ بضعة أمتار، على مدى نظرك. وكنتَ تكاد تحسُّ الأشجار وهي تشرب الماء بجذورها. فهذه الغابة كانت تدبُّ فيها الحياة كثيراً. وكلّما حاول ديغوري وصفها في ما بعد، كان دائماً يقول: «كانت مكاناً غنيًّا، غنيًّا مثل حلوى الخوخ».

أمّا أغرب شيء فهو أنّ ديغوري، قبل أن يتمكّن من النظر حواليه تقريباً، كان قد نسي جزئيًّا كيف وصل إلى هناك. وعلى كلّ حال، فمن المؤكّد أنّه لم يكن يُفكّر ببولي، ولا بخاله أندرو، ولا بأُمّه أيضاً. لكنّه لم يكن مرتعباً أو متحمّساً أو فضولياً على الإطلاق. ولو سأله أحد: «من أينَ جئت؟» لقال على الأرجح: «طالما كنتُ هنا دائماً». فهكذا كان شعوره، وكأنّه كان في ذلك المكان دائماً ولم يشعر قطّ بالضجر، مع أنّه لم يحدث أيُّ شيء. وكما قال بعد ذلك بزمان طويل: «ليس هذا مكاناً يمكن أن تحدث فيه الأشياء. فكل ما يحدث هناك هو أن الأشجار تظل تكبر».



بعدما تطلّع ديغوري إلى الغابة وقتاً طويلاً، لاحظ وجود بنت مستلقية على ظهرها تحت شجرة على بعد بضعة أمتار. كانت عيناها مُغمَضتين نصف إغماضة، وكأنّها بين النوم واليقظة. فنظر إليها طويلاً، ولم يقل كلمة. وأخيراً فتحت عينيها، وتطلّعت إليه طويلاً، ولم تقُل شيئاً أيضاً. ثمّ تكلّمت، بصوتٍ حالمٍ وراضٍ، قائلةً:

«أعتقد أنيّ رأيتُك من قبل».

فقال ديغوري: «وأنا أيضاً أعتقد ذلك. أأنتِ هنا من زمان؟»

فردّت البنت: «نعم، أنا هنا دائماً. على الأقلّ – لستُ أدري – من زمان طويل».

أجاب ديغوري: «وأنا كذلك».

قالت: «لا، لستُ كذلك، فقد رأيتك منذ هُنيهة تطلع من تلك البركة».

فقال ديغوري بشيء من الدهشة: «نعم، أعتقد هذا. نسيت!» ثمّ مضى وقتٌ طويلٌ نوعاً ما، لم يقل فيه أيّ منهما كلمة أُخرى.

بعد ذلك قالت الفتاة: «انظُر إليّ! أريد أن أسألك: هل سبق أن التقينا فعلاً؟ في عقلي فكرة، أو صورة، عن صبيّ وبنت مثلنا، يعيشان في مكان مختلف تماماً، ويعملان أموراً مختلفة. وربّما كان هذا مجرّد حلم».

فقال ديغوري: «أعتقد أنيّ حلمتُ الحلم نفسه، عن صبيّ وبنت يعيشان في بيتين مُتجاورَين، كانا يزحفان ويتنقّلان بين العوراض. وأتذكّر أن وجه البنت كان وسخاً».

«ألا تختلط عليك الأمور؟ ففي الحلم كان وجه الصبيّ هو الوسخ».

قال ديغوري: «لا أقدر أن أتذكّر وجه الصبيّ». ثم أضاف: «انظري، ما هذا؟»

فقالت البنت: «عجباً! إنّه خنزير هنديّ». وكان خنزيراً هنديّاً سميناً يُخربش ويشمشم بأنفه بين العشب. ولكنْ كان حول وسط الخنزير الهنديّ شريط، وقد رُبط عليه بالشريط خاتم أصفر لمّاع.

وهتف ديغوري:
«تطلّعي، تطلّعي!
الخاتم! انظري! في
إصبعكِ خاتم، وفي
إصبعي أيضاً خاتم».

ثمّ جلست الفتاة، وقد أثير اهتمامها أخيراً. وحدّق أحدهما إلى الآخر طويلاً، محاولَين أن يتذكّرا. وبعد ذلك، في اللحظة ذاتها تماماً، صرخت پولي: «السيّد كترلي» وصرخ ديغوري: «خالي أندرو»، وعرفا مَن هما وبدأا يتذكّران القصّة كلّها. فبعدما مرّت دقائق قليلة استصعبا فيها الكلام، اتضح الأمر لهما أخيراً. وشرح ديغوري كم كان خالُه أندرو متوحّشاً في تعامُله.

فسألت پولي: «ماذا نفعل الآن؟ أنأخذ الخنزير الهنديّ ونرجع إلى ديارنا؟»

قال ديغوري وهو يتثاءب تثاؤبةً واسعة: «لا داعي للعجلة!»

فردّت پولي: «بل أعتقد أنّ العجلة ضروريّة. هذا المكان هادىء جدًّا. إنّه غامض جدًّا. أنت نعسان كثيراً. فإنِ استسلمنا للأمر، فحالاً نستلقي ونبقى بحالةٍ من النوم إلى الأبد».

قال ديغوري: «المكان هنا جميل جدًّا».

وقالت پولي: «نعم، هو هكذا، ولكنْ علينا أن نرجع». ثمّ وقفَت وبدأت تمشي بحذر نحو الخنزير

الهنديّ. لكنّها عادت فغيّرت رأيها. وقالت: «ربمّا كان يجب أن نترك الخنزير الهنديّ هنا. فهو مسرورٌ كثيراً، ولن يكون من خالك إلاّ أن يصنع به شرًّا إذا أرجعناه إلى الديار».

فأجاب ديغوري: «أنا متأكدٌ أنّه سيفعل ذلك. انظري كيف عاملنا نحن. على فكرة، كيف يمكننا الرجوع إلى ديارنا؟»

«ندخل في البركة من جديد، على ما أظنّ».

ثمّ تقدّما ووقفا معاً عند الحافة ناظِرَين إلى المياه الهادئة تحتهما. وكان ينعكس على كلّ سطحها منظر الأغصان الخضراء الكثيرة الورق، ويجعلها تظهر عميقة جدًّا.

قالت پولي: «ليس معنا ثياب سباحة!»

قال ديغوري: «لن نحتاج إليها يا ذكيّة. سنغوص بثيابنا. ألا تتذكّرين أنّ المياه لم تبلّلنا عند صعودنا من البِركة؟»

«هل تقدر أن تسبح؟»

«قليلاً، وأنتِ؟»

«حسناً! ليس كثيراً».

«لا أعتقد أنّنا نحتاج أن نسبح. ما علينا إلاّ النزول، أليس كذلك؟» لم تُعجب أيًّا منهما فكرة القفز إلى تلك البركة، ولكنْ لم يقُل أحدهما للآخر ذلك. فأمسَكا أحدهما بيد الآخر وعدّا: «واحد – اثنان – ثلاثة – هيّا!» ثمّ قفزا. وحدث رشاش كثير، وقد أغمضا أعيُنَهما طبعاً.

ولكنْ لَمّا فتحا أعيُنهما من جديد، وجدا أنّهما ما زالا واقفَين يداً بيد في الغابة الخضراء، والماء لا يكاد يصل إلى كواحلهما. فمن الواضح أنّ المياه لم تكن أعمق من بضعة سنتيمترات. وعادا إلى الأرض الجافة يشقان الماء مطلقين رشاشاً.

وسألت پولي بصوت مذعور: «تُرى، ما الخطأ الذي عملناه هنا؟» لكنّها لم تكن مرعوبة كثيراً كما قد تتوقّع، لأنّه يصعب بالفعل أن تشعر بالرعب في تلك الغابة. فالمكان هادىء وساكن جدًّا.

وقال ديغوري: «أُوه، أنا أعرف أنّ هذا لن ينفع. فما زلنا نلبس خاتَمينا الأصفرين، وهُما لرحلة الخروج كما تعرفين. إنّ الخاتم الأخضر يُعيدنا إلى الديار. فيجب أن نُغيِّر الخاتمين. أعندكِ جيبان؟ طيِّب! ضعي خاتمك الأصفر في جيبك الأيسَر. معي خاتمان أخضران. وهذا واحد لكِ».

ثمّ لبسا خاتَميهما الأخضرَين، ورجعا صوب البِركة. ولكن قبل أن يُجرِّبا قفزة أُخرى، أطلق ديغوري «أووه!» طويلة.

فسألت پولي: «ما المشكلة؟»

قال ديغوري: «خطرت لي الآن فكرة عظيمة حقًّا. ما هذه البِرَك الأُخرى كلُّها؟»

«ماذا تقصد؟»

«إذا استطعنا أن نرجع إلى عالمنا بالقفز إلى هذه البِركة،

أفلا نصل إلى مكان آخر إن قفزنا إلى واحدة من البِرَك الأُخرى؟ على فرض أنّ تحت كلّ بركة عالماً معيّناً».

«ولكنّني اعتقدتُ أنّنا صرنا في 'العالم الآخر' أو 'المكان الآخر' الخاصّ بخالك أندرو، أو بغض النظر عما يدعوه، أمَا قُلتَ...»

فقاطعها ديغوري: «يا للخال أندرو! لا أعتقد أنّه يعرف أيّ شيء عن هذا الأمر. لم تكُن له الشجاعة قطّ ليأتي إلى هنا بنفسه، وقد تكلّم عن عالم آخر واحد فقط. ولكنْ لنفرض أنّ هناك عشرات العوالم؟»

«أتقصد أنّ هذه الغابة يمكن أن تكون فقط عالمًا من تلك العوالم؟»

«لا، لا أعتقد أنّ هذه الغابة هي عالمٌ أبداً. أظنّ أنّها مُجرّد مكان وَسَط».

فظهرت على پولي ملامح الدهشة. وقال لها ديغوري: «ألا تعرفين؟ أصغي إليّ. فكّري في النفق الذي عبرناه تحت الألواح في ديارنا. إنّه ليس غرفة في أيّ بيت من البيوت. كما أنه، ليس جزءًا من أيّ بيت بالحقيقة. ولكن عندما ندخل ذلك النفق فحالاً يمكننا أن نسير فيه حتّى نصل إلى أيّ بيتٍ في صفّ البيوت المتلاصقة. ألا يمكن أن تكون هذه الغابة مثل ذلك؟ مكاناً ليس في أيّ عالم من العوالم، ولكنْ حالما نصل إليه نستطيع أن نصل إليها كلّها».

وبدأت پولي تقول: «حتّى لو كنّا نستطيع...» لكنّ ديغوري تابع كلامه وكأنّه لم يسمعها:

«وهذا بالطبع يُفسِّر كلَّ شيء. لهذا السبب نجد المكان هنا هادئاً وساكناً جدًّا. فلا يحدث هنا شيء أبداً. وكما في ديارنا، ففي البيوت يتحدَّث الناس ويقومون بأمورهم ويتناولون طعامهم. فلا شيء يحدث في الأماكن الوسط، خارج الجدران أو فوق السطوح أو في نفقنا الخاصّ. ولكن حين نخرج من نفقنا، يمكن أن نجد أنفسنا في أيّ بيت من البيوت. فأعتقد أنّنا نقدر أن نخرج من هنا إلى أيّ مكان فعلاً! ليس علينا أن نقفز من جديد إلى البركة التي بها جئنا. أو ليس الآن على الأقلّ».

فقالت پولي كمن يحلم: «الغابة بين العوالم... كم يبدو هذا جميلاً!»

وقال ديغوري: «هيّا، أيّ بركة نجرِّب؟»

فقالت پولي: «انظر إليَّ. لن أُجرِّب أيّة بركة جديدة حتّى نتأكَّد أوّلاً أنّنا نقدر أن نرجع عبر البركة القديمة. نحن غير متأكّدين بعد من كون هذا الأمر سينجح».

قال ديغوري: «نعم، ويمسك بنا خالي أندرو، فيأخذ خواتمنا قبل أن نتمتَّع بشيءٍ من المَرَح! لا، شكراً!»

وسألَت پولي: «ألا يمكننا أن نقطع جزءاً من الطريق فقط إذ نغوص في بركتنا، فقط لنرى هل الأمر صحيح؟ فإذا نفع ذلك، نُغيِّرَ الخاتم، ونرجع إلى هُنا قبل أن نصل فعلاً إلى مكتب السيِّد كِترلي».

«وهل يمكننا بالفعل أن نقطع جزءاً من الطريق فقط؟»

«حسناً، استغرق صعودنا وقتاً. وأعتقد أنَّ رجوعنا سيستغرق وقتاً قصيراً».

كاد ديغوري يعمل قضيَّة من الموافقة على هذا، ولكنّه اضطُرَّ إلى القبول أخيراً، لأنَّ پولي رفضت القيام بأيّ استكشاف في أيّ عالَم جديد قبل أن تتأكَّد لها إمكانية الرجوع إلى العالم القديم. كان لها مثلُ شجاعة ديغوري تجاه بعض الأخطار (كالدبابير مثلاً)، ولكنّها لم تكن متشوّقةً مثله إلى اكتشاف أشياء لم يسمع بها أحد قبلاً، لأنَّ ديغوري كان مثل ذلك الشخص الذي يرغب في معرفة كلّ شيء، ولمّا كبر صار الأستاذ كيرك المشهور المذكور في كتب أخرى.

وبعد الكثير من الجدل اتّفقا على وضع خاتميهما الأخضرين في إصبعيهما (وقد قال ديغوري: «الأخضر لون الأمان، فلا يمكنكِ أن تنسَي دور كلّ خاتم») وعلى إمساك أحدهما بيد الآخر، والقفز. ولكنَّ حالما يبدو أنهما راجعان إلى مكتب الخال أندرو، أو حتّى إلى عالمهما الخاصّ، كان يجب أن تصرخ پولي: «لنغيِّرِ الخاتم!» وعندئذٍ ينزعان خاتميهما الأخضرين ويلبسان الأصفرين. وأراد ديغوري أن يكون هو من يصرخ «لنغيِّرْ الخاتم!» لكنْ پولي لم تقبل.

ثمَّ لبسا الخاتمين الأخضرين، وأمسكا أحدهما بيد الآخر، ومن جديد عدّا: «واحد، اثنان، ثلاثة، هيّا!» وقد نجح الأمر هذه المرَّة! ويصعب جدًّا أن أشرح لك

بالضبط ماذا حصل، لأنَّ كلَّ شيء حدث بسرعة فائقة. ففي البداية، لمحا أضواءً برّاقة تتحرّك في الفضاء الأسود. ويعتقد ديغوري دائماً أنّها كانت نجوماً، حتّى إنّه يُقسِم بأنّه رأى كوكب المُشتري قريباً جدًّا بحيث استطاع أن يرى القمر التابع له. ولكنْ في الحال تقريباً شاهدا صفوفاً وصفوفاً من السطوح والمداخن حواليهما، ثمّ استطاعا أن يريا قُبّة كاتدرائيّة القدّيس بولس، فعرفا أنّهما يشاهدان لندن. إنّما كان ممكناً أن يريا ما وراء حيطان البيوت كلّها. ثمّ استطاعا أن يريا الخال أندرو، بشكلٍ غامض وكأنه خيال، لكنّه كان يزداد وضوحاً بصورة ملموسة، وكأنَّ التركيز الضوئيّ يتسلّط عليه. ولكن قبل أن يصير واضحاً تماماً، صرخت بولي: «لنغيّر الخاتم!»، فغيّرا، وإذا بعالمنا يتلاشى ويبتعد كحلم، والضوء الأخضر فوقُ يشتدُّ أكثر فأكثر، حتّى طلع رأساهما من البركة، وزحفا على ضفّتها، فإذا الغابة حواليهما خضراء وزاهية وهادئة كما كانت دائماً. ولم يستغرق ذلك كلّه أكثر من دقيقة واحدة!

ثمّ قال ديغوري: «عجباً! كلّ شيء بخير. والآن، لنذهب في مغامرةٍ! أيّ بركة تنفع. هيّا نجرّب تلك البركة!»

فقالت بولي: «مهلاً! ألا نضع علامة على هذه البركة؟»

ثمّ حدّقا أحدهما إلى الآخر، وشحب وجهاهما تماماً، إذ تبيّنَ لهما الأمر المخيف الذي كان ديغوري يهمُّ بأن

يفعله. فقد كان عدد البِرَك في الغابة هائلاً، وكانت البِرَك كلّها متشابهة، بحيث إذا تركا وراءهما البركة الموصلة إلى عالمنا، دون أن يتركا أية علامة عليها، يكون احتمال إيجادها من جديد ضئيلاً جداً.

وأخذت يدا ديغوري ترتجفان لمّا فتح سكّينه الصغيرة وجرف تلماً طويلاً من طبقة التربة على ضفّة البركة. فظهرت التربة (الطيّبة الرائحة) بُنّية حمراء غنيّة، مختلفة تماماً عن خضرة العشب حولها. وقالت بولي: «من الخير أنّ واحداً منّا كان له شيء من التفكير السليم».

فقال ديغوري: «حسناً، كفاكِ مفاخرة بهذا! هيّا، أُريد أن نرى ماذا نجد في واحدة من البِرَك الأُخرى». وردّت عليه بولي بكلام قاسٍ، فردّ عليها بكلامٍ أقسى. ودام الشجار بضع دقائق، ولكن تدوين كامل الجدال مملٌّ وغير مناسب. ولذا فلننتقلْ إلى اللحظة التي فيها وقفا - وقلباهما يدقّان وعلى وجهيهما علامات الخوف - عند حافة البركة المجهولة، لابسَين خاتميهما الأصفرين، وأمسكا أحدهما بيدي الآخر، وقالا مرّة أُخرى: «واحد، اثنان، ثلاثة، هيّا!»

تطاير رذاذ الماء، ولكنْ هذه المرّة لم يحدث شيء. فهذه البركة أيضاً لم تكُن إلّا مُستنقعاً موحلاً. وبدلاً من الوصول إلى عالَم جديد، كل ما عملاه هو أنّهما بلّلا أرجلهما فقط مرّة ثانية ذلك الصباح (كان الوقت صباحاً، فيبدو الوقت هو نفسه دائماً في الغابة بين العوالم).

وهتف ديغوري: «تعب بلا نفع! ما الخطأ الآن؟ لقد لبسنا خاتمَينا الأصفرين فعلاً، وهو قال إنَّ الأصفر لرحلة الخروج!»

أمّا حقيقة الأمر فهي أنَّ الخال أندرو ما كان يعرف شيئاً عن الغابة بين العوالم، ولذلك كانت له فكرة خاطئة كليًّا عن الخواتم. فإنَّ الصُفر لم تكن خواتم «خروج»، والخُضر لم تكن خواتم «رجوع»، على الأقل بالطريقة التي اعتقدَها. والموادُّ التي صُنعت منها الخواتم كانت كلُّها من الغابة. أمّا موادُّ الخواتم الصُفر فكان لها القدرة على سحبك إلى الغابة، لأنَّها كانت موادَّ تريد أن ترجعَ إلى مكانها الخاصّ، المكان الوَسَط. وأمّا موادُّ الخواتم الخُضر فهي موادُّ تحاولُ أن تخرج من مكانها الخاصّ؛ وهكذا فالخاتم الأخضر يُخرجك من الغابة إلى عالَمٍ من العوالم.

فأنت ترى أنَّ الخال أندرو كان يشتغل بأشياء لا يفهمها تماماً، بعكس معظم السَّحَرة. وطبعاً، لم يكن ديغوري يفهم الحقيقة بوضوح أيضاً، أو لم يفهمها إلّا في ما بعد. ولكن لمّا تباحثا في المسألة، قرّرا أن يُجرّبا خاتميهما الأخضرين في البِركة الجديدة، فقط لينظرا ما سيحدث.

قالت پولي: «أنا عازمةٌ على ذلك، إن كنتَ أنت كذلك!» ولكنَّها بالحقيقة قالت ذلك لأنَّها في أعماق قلبها كانت متأكّدة أنَّ أيّاً من الخاتمين لن ينفع أبداً في البركة الجديدة، وهكذا لم يكن من شيء تخافه أسوأ من حصول رشاشِ ماء آخر. وأنا غير متأكِّدٍ تماماً هل كان

لديغوري الشعور ذاته. فعلى كلِّ حال، لمّا لبسا كلاهما خاتمَيهما الأخضرين ورجعا إلى حافة الماء، وأمسك أحدُهما بيد الآخر من جديد، كانا بالحقيقة أكثر فرحاً وحماسةً وأقلَّ تخوُّفاً إلى مدى بعيد ممّا كانا عليه أوّل مرّة.

ثمَّ قال ديغوري: «واحد، اثنان، ثلاثة، هيّا!» وقفزا.

الفصل الرابع

الجرَس والمِطرقة

زال كل شكٍّ في السّحر هذه المرّة. فقد اندفعا نزولاً نزولاً، وسط الظلام أولاً، ثمّ وسط مجموعة من الأشكال الغامضة المتحرّكة دائرياً، والتي كان يمكن أن تكون أيّ شيء تقريباً. وأخذ النور يتزايد، ثمّ أحسّا فجأةً أنّهما واقفان على شيء صُلب. وبعد هُنَيهة توضّح كلّ شيء، وقدرا أن ينظرا حواليَهما.

فقال ديغوري: «يا له من مكان غريب!»

وقالت پولي وهي ترتجف: «لا يعجبني!»

وكان أول شيءٍ لاحظاه هو النور. لم يكُن مثل ضوء الشمس، ولا مثل نور الكهرباء أو القناديل أو الشموع، ولا مثل أيّ نورٍ آخر سبق أن رأياه. كان ضوءاً باهتاً، مائلاً إلى اللون الأحمر، غيرَ مُبهج أبداً. وكان ثابتاً لا يتغيّر. ووجدا أنّهما واقفان على سطح منبسط مُبلّط، وحواليهما بنايات عالية. ولم يكن فوق رأسيهما سقف، بل كانا في ما يشبه الساحة. وكانت السماء

مظلمة بصورةٍ فوق العادة؛ زرقة تكاد تكون سواداً. فلو رأيتَ ذلك الفضاء، لتساءلتَ عن وجود أيّ نور أصلاً.

قال ديغوري: «الطقس هنا غريب جدًّا. تُرى، هل وصلنا قبل هبوب عاصفة، أو حدوثِ كُسوف؟»

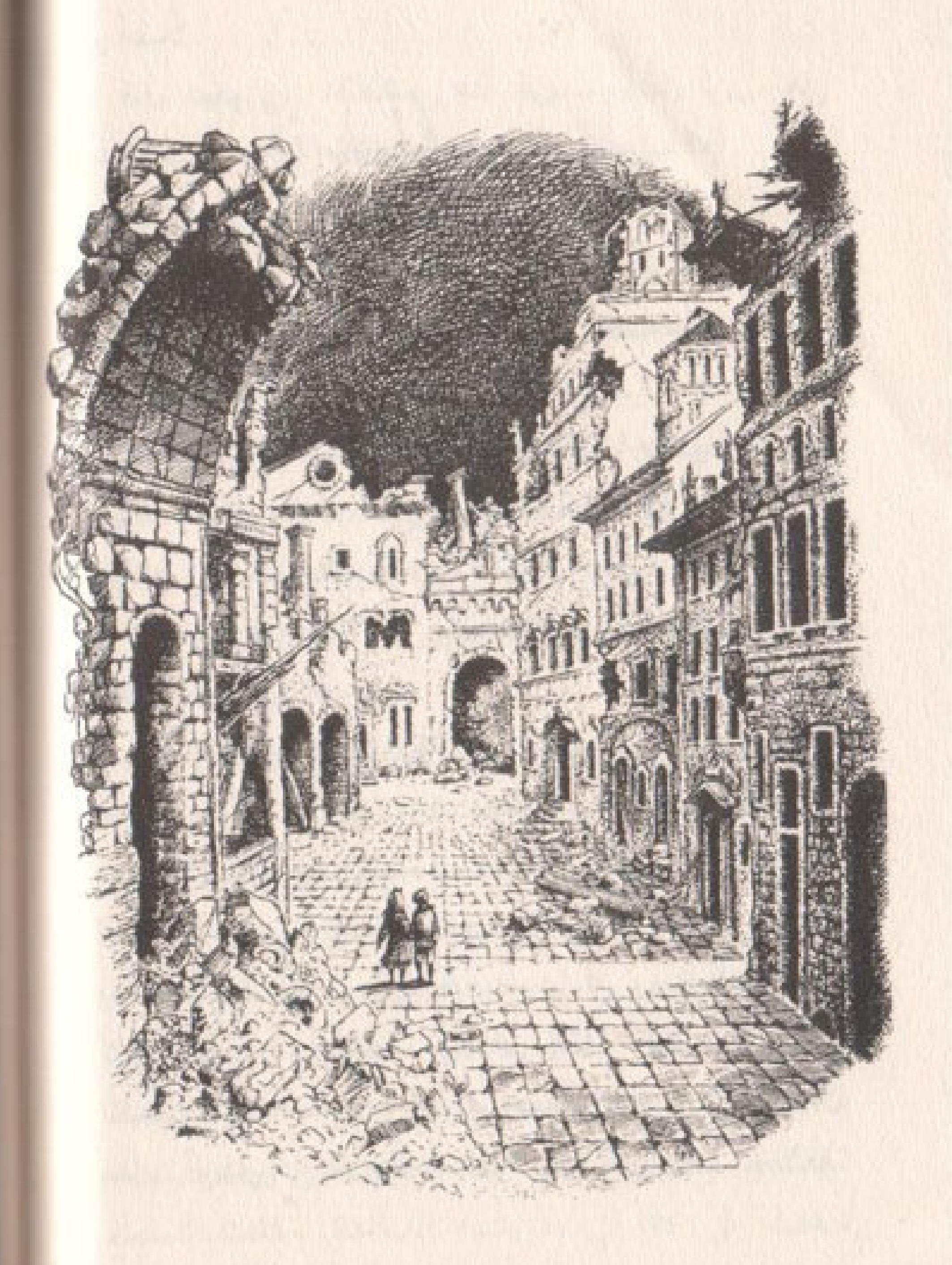
فقالت پولي: «لا يعجبني هذا المكان».

كان كلاهما يتكلّمان همساً دون أن يعرفا سبب ذلك. ومع أنّه لم يكن ما يدعوهما لإبقاء يد أحدهما بيد الآخر بعد قفزتهما، فلم يفلت أحدهما الآخر.

وكانت الحيطان عالية جدًّا حول الساحة، وفيها نوافذ كبيرة كثيرة، نوافذ بِلا زجاج، لا ترى من خلالها إلاّ الظلام الحالك. وتحتها في الأسفل قناطر على أعمدة، تتثاءب تثاؤباً معتماً مثل أفواه أنفاق القطارات. وكان الطقس يميل إلى البرودة.

أمّا الحجارة التي بها بُني كلّ شيء فقد بَدَت حمراء، ولكنّ ربّما كان ذلك فقط بسبب الضوء الغريب. ومن الواضح أنها كانت قديمة جداً. فكثير من الحجارة المسطّحة التي رُصفت بها الساحة كان مُشقّقاً ومفسّخاً. ولم يكن أيّ حجر منها في محلّهِ تماماً، كما كانت زواياها الحادّة متآكلة. وكان أحد المداخل المُقنطَرة مملوءاً بالركام حتّى نصفه. وقد ظلّ الولدان يلفّان ويدوران ليتطلّعا جوانب الساحة المختلفة.

ومن أسبابِ ذلك أنّهما كانا يخافان أن يكون شخصٌ، أو شيء، ناظراً إليهما وهما يُديران ظهرَيهما.



أخيراً سأل ديغوري: «هل تعتقدين أنَّ أحداً يسكن هنا؟» وكان ما زال يتكلّم همساً.

فأجابت پولي: «لا، فالمكان خراب. ولم نسمع صوتاً منذُ جئنا».

واقترح ديغوري: «لنصمتْ قليلاً ونتسمَّع!»

فوقفا ساكنَين وتسمّعا، ولكنَّ كلَّ ما قدرا أن يسمعاه كان دقّات قلبيهما المتلاحقة. فقد كان هذا المكان على الأقلّ هادئاً مثل الغابة بين العوالم. ولكنّه كان هدوءًا من نوع آخر. فهدوء الغابة كان غنيّاً ودافئاً (كنتَ تكاد تسمع الأشجار وهي تكبر) ومُفعماً بالحياة. أمّا هذا الهدوء فكان صمتاً فارغاً وبارداً وعقيماً. ولا تستطيع أن تتصوَّر أيَّ شيءٍ ينمو فيه.

إذ ذاك قالت پولي: «لنعُد إلى البيت!»

فقال ديغوري: «ولكنّنا لم نشاهد شيئاً بعد. فما دمنا الآن هنا، فليس علينا إلّا أن نقوم بجولة سريعة».

«أنا متأكّدة بأنّه ليس هنا ما يستحقُّ المشاهدة».

«إن إيجاد خاتمٍ ينقلك إلى عوالم أُخرى ليس نافعاً كثيراً، إذا خفتِ أن تتفرَّجي عليها عندما تصلين إليها».

فقالت پولي: «ومَن قال شيئاً عن الخوف؟» ثُمَّ أفلتت يد ديغوري.

«اعتقدتُ فقط أنّكِ لم تَظهري متحَمِسةً جدًّا لاستكشاف هذا المكان».

«سأذهب أينما ذهبتَ أنت».

فقال ديغوري: «يمكن أن ننصرف حالَما نريد. لننزعْ خاتَمينا الأخضرين، ونضعهما في جيبَينا الأيمنين. وكلُّ ما يجب أن نفعله هو أن نتذكّر أنَّ الأصفرين هما في جيبَينا الأيسرين. يمكنك أن تُبقي يدك قريبة من جيبك بقدْر ما تريدين، ولكن لا تضعيها فيه، وإلاّ لمستِ خاتمك الأصفر واختفيتِ».

ففعلا ذلك وتقدّما بهدوء صوب واحد من المداخل المقنطرة الكبيرة المؤدّية إلى داخل البناية. ولمّا وقفا على العتبة وقدرا أن ينظرا إلى الداخل، لم يجدا المكان مظلماً جدًّا مثلما ظنّاه أوّلاً. فقد كان ذلك المدخل يؤدي إلى قاعة واسعة تخيّم عليها الظلال وتظهر فارغة. ولكنْ في الجانب البعيد كان صفٌّ من الأعمدة فوقَها قناطر يتسرّب من بينها مزيد من الضوء الخافت ذاته. فعبرا القاعة وهما يمشيان بكلّ حذر خوفاً من وجود حُفَر في الأرض أو من أيّ شيء مُمدَّد هناك يمكن أن يتعثرا به. وبدا لهما المشوار طويلاً. ثمّ لمّا وصلا الجانب الآخر، خرجا من تحت القناطر، فوجدا أنفسهما في ساحة أُخرى أكبر.

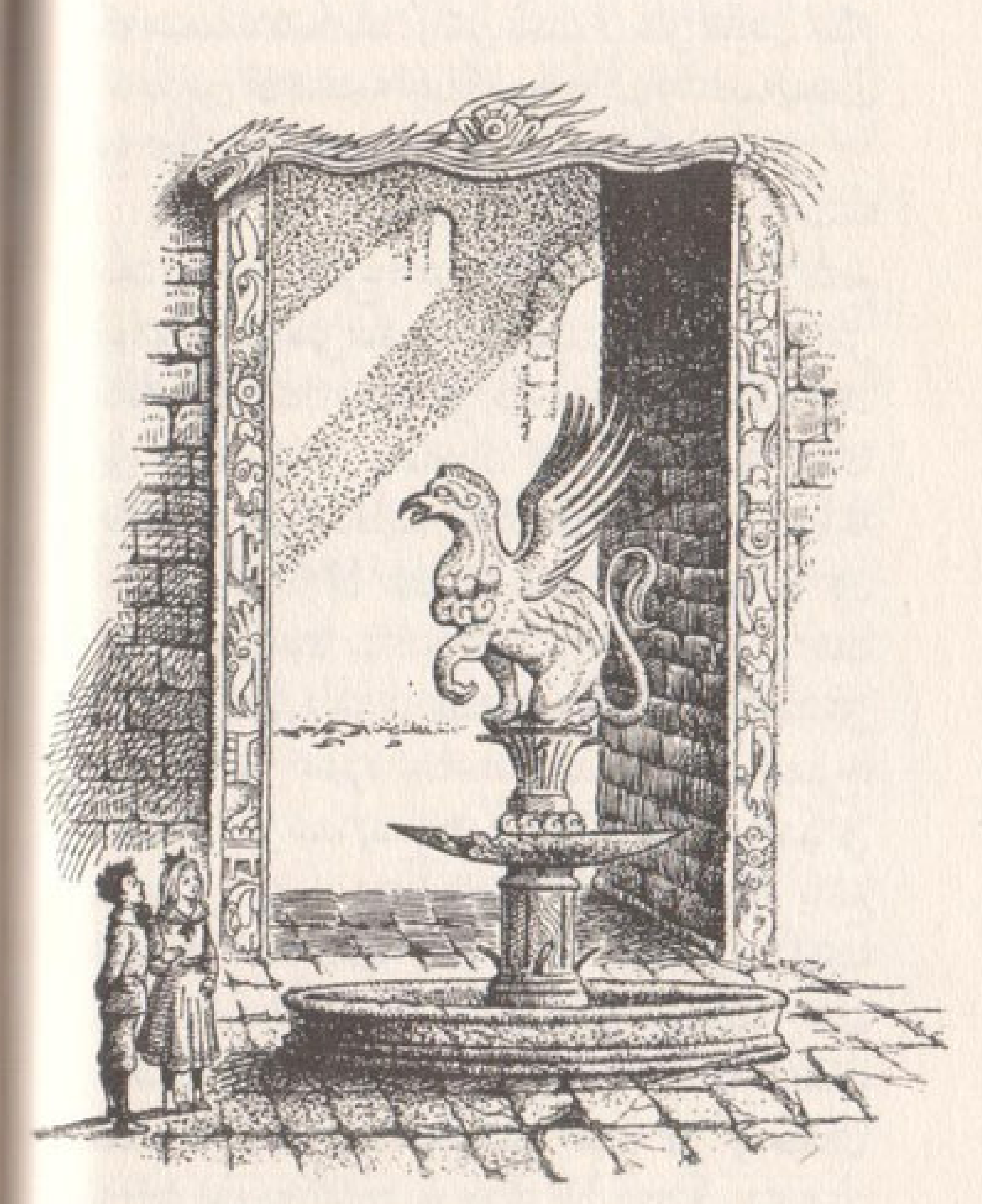
وقالت بولي: «لا يبدو ذلك آمناً جدّاً»، مشيرةً إلى مكان يبرز فيه الحائط إلى الخارج ويبدو كأنّه يكاد يسقط على الساحة. وفي أحد الأمكنة لم يكن عمود بين قنطرتين، والجزء النازل من القنطرة إلى حيث يجب أن يكون رأس العمود كان متدلياً في مكانه دون أن يسنده

شيء. فمن الواضح أنّ ذلك المكان كان مهجوراً طوال مئاتٍ – أو ربّما آلاف – من السنين.

فقال ديغوري: «إذا كان قد صمد حتى الآن، فأعتقد أنه سيصمد قليلاً بعد. ولكن يجب أن نظلّ هادِئين جدًّا. أما تعرفين أنّ الضجة أحياناً تهدم الأشياء، مثلما يحدث مع كتلة الجليد الضخمة فوق جبل الثلج؟»

وخرجا من تلك الساحة إلى مدخل آخر وصعدا مجموعة من الدَرَج، فوصلا إلى غُرَف واسعة تنفتح أبوابُها بعضُها على بعض، حتّى تُصيب الإنسانَ دوخة من مجُرّد كِبَر المكان. وكانا كلَّ مرّة يعتقدان أنّهما سيطلعان إلى الهواء الطَلق فيشاهدان أيُّ حقول تُحيط بذلك المكان الفسيح. لكنّهما دائماً كانا يخرجان إلى ساحة أُخرى. ولا بدّ أنّ تلك الأمكنة كانت رائعة لمّا كان الناس ما يزالون ساكنين فيها. وكان في إحدى تلك الساحات نافورة خَرِبة، حيث قام حيوان غريب الشكل منحوت من حجر، جناحاه منبسطان وفمه مفتوح، وتظهر في قعر فمه بضع ثقوب كان يتدفّق الماء منها في ما مضى. وتحت تمثال الحيوان حوضٌ حجريّ واسع لاحتواء الماء، لكنّه الآن جافٌّ تماماً. وفي أمكنة أُخرى عيدان يابسة تخص نباتات متسلّقة حول الأعمدة، وقد ساعدت في إسقاط بعضها، ولكنّها ماتت من زمان بعيد. ولم يكن هناك نمل أو عناكب أو أيّ حشرة أُخرى ممّا تتوقّع أن تراه في الخرائب.

حتى حين كانت التربة الجافة تظهر من بين الحجارة المرصوفة المكسَّرة، لم يكن يظهر عشب ولا حشيش.



كان كلُّ شيء موحِشاً ومُشابهاً لغيره حتّى إنَّ ديغوري نفسه فكَّر أنَّه أفضلُ لهما أن يلبسا خاتَميهما الأصفرين ويرجعا إلى الغابة الحيَّة الخضراء الدافئة في المكان الوَسَط. ولكنَّهما وقفا فجأةً أمام بابَين كبيرَين من معدن ربَّما كان ذهباً، أحدهما مفتوح قليلاً. وطبعاً، دخلا لينظرا. ثم تراجعا كلاهما، وأخذا نفساً طويلاً، لأنَّه أخيراً كان هنا شيء يستحقُّ المشاهدة.

اعتقدا لحظةً أنَّ الغرفة تغصُّ بالناس: مئات الأشخاص، كُلُّهم قاعدون وصامتون تماماً. وكما قد تتوقع، جمدت پولي وديغوري وقتاً طويلاً، وهما ينظران إلى الداخل. لكنَّهما قرَّرا بعد ذلك أنَّ ما كانا ينظران إليه لا يمكن أن يكون ناساً حقيقيّين. فلم تصدرْ من بينهم جميعاً أيَّةُ حركة، ولا حتّى صوتُ نفَس. وكان أولئك الأشخاص يشبهون أحسن تماثيل شمع يمكن أن تراها.

هذه المرَّة، بادرت پولي إلى التحرُّك أوّلاً، إذ وجدت في تلك الغرفة ما لفت انتباهها أكثر من انتباه ديغوري، حيث كان جميع الأشخاص لابسين ثياباً فاخرة. وإذا كانت الثياب تروقك، فإنه يصعب عليك أن تمنع نفسك من التقدُّم لرؤيتها من قُرب. ثمَّ إنَّ لمعان ألوانها جعل تلك الغرفة تظهر، لا مبهجةً، لكن على الأقل غنيَّة وجليلة بعد كلِّ الغبار والفراغ اللذين عمّا الغُرَف الأُخرى. وكان لهذه الغرفة أيضاً نوافذُ أكثر، كما كانت أكثر ضوءًا من الغُرَف الأخرى إلى حدٍّ بعيد.

ويكاد يصعب عليَّ وصف تلك الثياب. فقد كان الأشخاص كلُّهم يرتدون أرواباً، وعلى رؤوسهم تيجان. وكانت أروابهم قرمزيَّة ورماديَّة فضيَّة وأُرجوانيَّة فاقعة وخضراء لامعة، وعليها جميعها أشكال وصور لزهور ووحوش غريبة، مطرَّزة بالإبرة. وتوهَّجت على تيجانهم حجارة ثمينة مُدهِشة الأحجام والألوان، وتدلَّى مثلُها بسلاسل حول أعناقهم، وتألَّق غيرُها في كلّ مكان رُبط فيه شيء.

سألت پولي: «لماذا لم تَبْلَ هذه الثياب كلُّها من زمان؟»

فهمس ديغوري: «هو السحر! أمَا تشعرين به؟ أُراهن على أنَّ هذه الغرفة كلَّها تعجُّ بأنواع السحر المختلفة. فأنا أحسَسْت بهذا لحظة دخولنا».

وقالت پولي: «كلُّ واحد من هذه الأثواب كلَّف مئات الجنيهات!»

لكنَّ ديغوري كان أكثر اهتماماً بالوجوه. وفي الواقع أنَّها كانت تستحق المشاهدة. فقد جلس الأشخاص على كراسيهم الحجريَّة إلى جوانب الغرفة، فيما بقيت الأرض فارغة في الوسط، بحيث تقدر أن تتقدَّم وتتفرَّج على الوجوه بالدَّور.

وقال ديغوري: «لقد كانوا ناساً جميلي الهيئة، كما أعتقد».

فهزَّت پولي رأسها موافقة. فجميع الوجوه التي استطاعا أن يرياها كانت جميلة فعلاً. وقد بدا الرجال والنساء كلُّهم لُطفاء وحكماء، كما ظهر أنَّهم جاؤوا من جنسٍ جميل. ولكنْ لمّا تقدَّم الولدان بضع خطوات في قلب الغرفة وصلا إلى وجوهٍ ظهرت مختلفة قليلاً. كانت تلك وجوهاً رزينة جدًّا. فلو قابلتَ ناساً أحياء لهم ذلك المنظر، لكان عليك أن تحترس وتتصرَّف بأدب. ولمّا ابتعدا قليلاً، وجدا أنفسهما بين وجوه لم تُعجبهما. وكان ذلك في وسط الغرفة تقريباً. فقد ظهرت الوجوه هنا كثيرة القوَّة والكبرياء والسعادة، لكنَّها بَدَت قاسية الملامح. وبعد مسافة قصيرة، ظهرت الوجوه أقسى. ثمَّ بعد مسافة قصيرة أيضاً، كانت قاسية كذلك، لكنَّها لم تعُد باسمة، بل كانت بالأحرى وجوهاً يائسة، وكأنَّ أصحابها قد فعلوا أفعالاً رهيبة وعانَوا عواقب رهيبة. وكان آخر شخص أكثر الأشخاص إثارةً للاهتمام: امرأة تلبس ثياباً أفخر من الآخرين، طويلة جدًّا (ولكنْ كلُّ شخص في تلك الغرفة

كان أطول من أهل عالمِنا). وكانت تبدو على تلك المرأة ملامح الشراسة والكبرياء بصورة تقطع أنفاسك. ولكنّها كانت جميلة أيضاً. وبعد ذلك بسنين كثيرة، لمّا صار ديغوري عجوزاً، قال إنّه ما رأى في حياته قطّ امرأة بهذا الجمال. إنّما من الإنصاف أن نُضيف أنّ پولي كانت تقول دائماً إنّها لم ترَ في تلك المرأة شيئاً جميلاً جمالاً خاصّاً.

وكما قلتُ، كانت هذه المرأة هي آخر ما رأياه. ولكنْ كان وراءها كثير من الكراسي الفارغة، وكأنّ المقصود أساساً أن تكون الغرفة لعددٍ أكبر من التماثيل.

قال ديغوري: «أتمنّى فعلاً لو نعرف القصّة التي تكمُن وراء هذا كُلّه. لنرجعْ ونتطلّع إلى ذلك الشيء الشبيه بالطاولة في وسط الغرفة».

لم يكن ذلك الشيء وسط الغرفة طاولةً بالضبط. كان عموداً مربّعاً يعلو عن الأرض أكثر من مترٍ بقليل، وعليه قامت قنطرة ذهبيّة صغيرة يتدلّى منها جرسٌ ذهبيٌّ صغير، وبجانب هذا الجرس مطرقة ذهبيّة صغيرة لقرْعِهِ بها.

قال ديغوري: «يا تُرى... يا تُرى... يا تُرى...»

وقالت پولي: «يظهر أنّ شيئاً مكتوب هنا»، فيما انحنت لتنظر جانب العمود.

فقال ديغوري: «أؤكد أن ها هنا شيئاً مكتوباً، ولكن من المؤكّد أننا لن نقدر أن نقرأه».

قالت پولي: «ألَن نقدر؟ لستُ متأكّدة!»

ثمّ نظرا كلاهما بتدقيق، ولكنْ - كما قد تتوقّع

- كانت الحروف المحفورة في الحجر غريبة. ثمّ حدثت عجيبة كبيرة: فبينما هما ينظران، تبيّن لهما أنّهما يقدران أن يفهما الحروف، مع أنّ شكلها الغريب لم يتغيّر قطّ. ولو تذكّر ديغوري ما سبق أن قاله هو نفسه قبل دقائق، من أنّ تلك الغرفة كانت مسحورة، لكان حزر أنّ السحر بدأ يفعل فعله. ولكنّ حبّ الاستطلاع أفقده صواب التفكير في ذلك. فقد كان شوقه يزداد كثيراً لمعرفة ما كان مكتوباً على العمود. وبسرعةٍ كبيرة عرف كلاهما. فإنّ الكلمات المكتوبة كانت شيئاً مثل ما يلي (على الأقلّ هذا معناها، مع أنّ الشِّعر كان أفضل عند قراءته هناك):

يا غريباً مُغامِراً، حدِّدْ خيارَك:
اقرعِ الجَرَس، وواجهِ الخَطَر،
أو فكِّر حتّى يُصيبَك الجنون:
«إذا قرعتَه، ماذا سيكون!»

قالت پولي: «لا خوف علينا، فنحنُ لا نريد أيَّ خطر».

قال ديغوري: «أوه، ألا ترَين أنّ اقتراحك لا ينفع؟ لا نقدر أن ننسى الأمر الآن. فسنظلّ نتساءل ماذا كان يمكن أن يحدث لو قرعنا الجرس. لن أعود إلى الديار حتّى أجنّ من التفكير بهذا دائماً. دعكِ من الخوف!»

فقالت پولي: «لا تكن سخيفاً هكذا، وكأنَّ أحداً يعنيه الأمر! ماذا يهمُّ أن نعرف ما يمكن أن يحدث؟»

«أعتقد أنَّ أيَّ شخصٍ يصل إلى هنا لا بدَّ أن يظلَّ يتساءل حتّى يكاد يجنّ. ألا تَرَين أنَّ هذا هو السحر الكامن في الأمر؟ يمكنني أن أشعر بأنَّه بدأ يفعل فعلَه فيَّ!»

فقالت پولي بحدَّة: «أمّا أنا فلا اشعر بهذا! ولا أعتقد أيضاً أنَّ ذلك حصل لك فعلاً. فأنت إنَّما تتظاهر».

قال ديغوري: «ذلك كلُّ ما تعرفينه. والسبب هو أنّكِ بنت. فالبنات لا يرغبن أبداً أن يعرفن أيَّ شيء سوى الثرثرة والقال والقيل عن الذين يَخطبون واللواتي يُخطبن».

قالت پولي: «ظهرتَ مثل خالك تماماً وأنت تقول هذا».

فسأل ديغوري: «لماذا تخرجين دائماً عن الموضوع؟ ما نتحدَّث عنه هو...»

فقالت پولي بصوتِ صبيّة راشدة: «إنك تبدو كرجل!» ولكنها أضافت بسرعة بصوتها الحقيقي: «ولا تقُل إنّي كامرأة بالضبط، وإلّا كُنتَ مُقلّداً بغيضاً!»

وقال ديغوري مُتعالياً: «لن أحلم أبداً بأن أُسمّي بنتاً صغيرة مثلكِ امرأة!»

فقالت پولي وقد سيطر عليها الغضب حقاً: «أأنا بنتٌ صغيرة؟ حسناً، لا داعي لأن تُزعجَك رفقةُ بنتٍ صغيرة

إذاً بعد الآن. كفى! ضجرتُ من هذا المكان. وضجرتُ منك أنت أيضاً، يا ولداً عنيداً مغروراً بغيضاً!»

«إيّاكِ، إيّاكِ!» قال ديغوري هذا بصوت أبشع ممّا قصد، لأنّه رأى پولي تحرِّك يدَها نحو جيبها لتسحب خاتمها الأصفر. ولا يمكنني أن أجد عذراً لما فعله بعد ذلك غير القول إنَّه ندم كثيراً عليه في ما بعد (ومثله فعل كثيرون آخرون). فقبل أن تصل يد پولي إلى جيبها، قبض على معصمها، مائلاً بظهره على صدرها. ثمَّ إذ أبقى يدها الأخرى بعيدة بكوعه الآخر، مال إلى الأمام، والتقط المطرقة، وقرع الجرس الذهبيَّ قرعة خفيفةً وسريعة. بعد ذلك أفلت پولي فوقع كلاهما بعيدَين أحدهما عن الآخر، وهما يُحدِّقان أحدهما إلى الآخر ويتنفَّسان نفساً شديداً. وهمَّت پولي بالبكاء، لا خوفاً، ولا أيضاً لأنَّه آذى معصمها إيذاءً مؤلماً، بل بسبب غضبها المُتّقِد. ولكنْ لم تمضِ ثانيتان حتّى حصل شيء جعلهما يُفكِّران فيه طرد شجاراتهما من عقليهما.

فما إن قُرع الجرس حتّى أطلق نغماً، عذباً كما قد تتوقَّع، وغير عالٍ كثيراً. ولكنْ بدل أن يتلاشى الصوت، ظلَّ يرن، وكلّما رنَّ صار أعلى.

وقبل أن تمضي دقيقة، كان الصوت أعلى ضِعفَين منه عند بدء الرنين. وسرعان ما صار عالياً جدًّا بحيث إذا أراد الولدان أن يتكلّما لم يكونا ليسمعا أحدُهما الآخر (مع أنّهما لم يكونا يفكِّران بالتكلُّم الآن، بل كانا واقفَين فقط وفَمَواهُما مفتوحان). وسريعاً جدًّا صار الصوت عالياً

كثيراً بحيث لم يكونا ليسمعا أحدُهما الآخر ولو صرخا. ومع ذلك ظلّ الصوت يتعالى، بنغم واحد دائماً، صوتاً عذباً متواصلاً، وإن كان في العذوبة شيءٌ منَ الهَول، حتّى صار كلُّ الهواء في تلك الغرفة الكبيرة نابضاً به، وكان يمكنُهما أن يحسّا الأرض الحجريّة تهتزُّ تحت أقدامهما. ثمّ بدأ صوت الجرس أخيراً يختلط بصوت آخر، بضجيج غامض مشؤوم ظهر أوّلاً مثل هدير قطار بعيد، ثمّ مثل تكسُّر شجرة واقعة. وسمعا ما يُشبه سقوط الأثقال العظيمة. وأخيراً، باندفاع وهدير مفاجئَين، وهزّةٍ كادت توقعهما أرضاً، هوى نحو رُبع السقف في طرف من أطراف الغرفة، وسقطت كُتَل ضخمة من حجارة البناء حواليهما، وارتجّت الحيطان. ثمّ انقطع صوت الجرس، وانقشعت غيوم الغبار، ورجع كلُّ شيء إلى هدوئه.

ولم يُعرَف قطُّ هل كان سقوط السقف بسبب السحر، أم هل صدف أنّ ذلك الصوت العالي بشكل لا يُطاق والصادر من الجرس وصل إلى درجة أقوى من أن تتحمّلها تلك الحيطان المتصدّعة.

ثمّ قالت پولي لاهثةً: «آه! أتمنّى أن تكون قد اكتفيت الآن!»

فقال ديغوري: «طيّب، انتهى كلُّ شيء على كلّ حال».

واعتقد كلاهما ذلك، ولكنّهما ما كانا في أيّ يوم من حياتهما أكثر خطأً مما كانا في ذلك اليوم.

الفصل الخامس

الكلمة السوداء

كان الولدان أحدُهما في مواجهة الآخر على كِلا جانبَي العمود المُعلّق عليه الجرس الذي كان ما يزال يهتزّ، مع أنّه لم يعُد يُصدِر أيَّ صوت. وفجأةً سمعا صوتاً من طرف الغرفة الذي لم يكن قد تهدّم. فالتفتا بسرعة البرق لينظرا ما الأمر. وإذا بأحد الأشخاص اللابسين أرواباً ينهض عن كُرسيه، وقد كان ذلك الشخص أبعد الجميع، وهو المرأة التي حسبها ديغوري رائعة الجمال. ولمّا وقفَت، عرفا أنّها أيضاً كانت أطول مما ظنّا. وكان يمكنك أن تعرف حالاً، لا من تاجها وروبها فقط، بل من بريق عينيها ورقّة شفتيها أيضاً، أنّها كانت ملكة عظيمة. وقد جالت بعينيها في الغرفة فرأتِ الخراب ورأت الولدين، ولكنْ لم يكن يمكنك أن تعرف من منظر وجهها بماذا كانت تفكّر بشأن هذين الولدين أو ذلكَ الخراب، ولا إن كانت فوجئَت. ثمّ تقدّمت بخطوات واسعة وسريعة، وسألت:

«مَن أيقظني؟ مَن فكَّ السحر عنّي؟»

فقال ديغوري: «أعتقد أنّه لا بدّ أن يكون أنا».



قالت الملكة «أنت!» واضعة يدها على كتفه، وكانت يداً بيضاء جميلة، لكنّ ديغوري قدر أن يحسّ أنّها كانت قويّة كالكمّاشة، «أنت؟ ولكنّك مجرّد ولد، ولد من عامّة الشعب. فأيُّ إنسان يمكن أن يعرف من نظرة واحدة أنْ ليس في عروقك أيُّ نقطة دم ملوكيّة أو نبيلة. كيف تجرّأ واحد مثلك أن يدخل هذا البيت؟»

فقالت پولي: «جئنا من عالم آخر، بالسّحر»، وقد فكّرت أنّه حان الوقت لتلتفت الملكة إليها كما إلى ديغوري.

فسألت الملكة: «أهذا صحيح؟» وهي ما تزال تنظر إلى ديغوري ولا توجّه إلى پولي ولو نظرةً واحدة.

قال ديغوري: «نعم، هو كذلك».

ووضعت الملكة يدها الأُخرى تحت ذقنه ورفعتها بشدّة لتقدر أن ترى وجهه بشكل أفضل. وحاول ديغوري أن يُحدّق إليها هو أيضاً، ولكنّه اضطُرّ سريعاً إلى إنزال عينيه. فقد كان في عينيها شيءٌ غلبه. وبعدما تفحّصته أكثر من دقيقة، أفلتت ذقنه وقالت: «أنتَ لست ساحراً. فعلامة السحر ليست عليك. لا بدَّ أن تكون مجرّد خادمِ ساحر. فبسحرِ شخصٍ آخر سافرتَ إلى هنا».

فقال ديغوري: «كان ذلك بسحر خالي أندرو».

في تلك اللحظة، لا في الغرفة نفسها بل من مكانٍ آخر قريب، سُمِعت أولاً قعقعة، ثمّ صرير، ثمّ هديرُ تهدُّم، وأخذت الأرض تهتز.

وقالت الملكة: «المكان هنا خطِر جداً. فالقصر كلّه يتهدَّم. وإن لم نخرج منه في دقائق قليلة، نُدفَن تحت الركام»، وقد كانت تتكلّم بهدوءٍ واضح وكأنّها تذكر فقط في أيّ ساعة من النهار نحن. ثمّ أضافت: «تعاليا!» ومدّت يداً إلى كِلا الولَدَين. أما پولي، وقد كرهت الملكة وكانت تميل إلى العبوس والتجهُّم، فما كانت لتسمح لها بأن تمسك يدها لو قدرت على ذلك. ولكنّ الملكة، رغم أنّها تكلّمت بكثير من الهدوء، كانت سريعة الحركات كسرعة التفكير. فقبل أن تعرف پولي ما يجري، قبضت على يدها

اليُسرى يدٌ أكبر وأقوى بكثير من يدها بحيث لم تقدر أن تفعل شيئاً بشأن ذلك.

وفكّرت پولي: «هذه امرأة مروِّعة. إنّها قويّة كفايةً لكسر ذراعي بفتلة واحدة. وما دامت قد أمسكتْ بيدي اليُسرى، فلا أقدر أن أصل إلى خاتمي الأصفر. وإذا أردتُ أن أمدَّ يدي اليُمنى بما يكفي لأُدخِلها في جيبي الأيسر، فربّما لا أقدر أن أصل إليه قبل أن تسألني ماذا أعمل. فمهما حصل، يجب ألّا ندعها تعرف بأمر الخواتم. وأتمنّى فعلاً أن يكون عند ديغوري تقديرٌ وفهمٌ كافٍ لإبقاء فمه مطبقاً. يا ليتني أقدرُ أن أكلّمه على حِدَة!»

أخرجتهما الملكة من قاعة التماثيل إلى ممرّ طويل، ثمّ إلى متاهة كاملة من الممرات والأدراج والساحات. ومراراً وتكراراً سمعا انهيار أجزاء من القصر العظيم، قريباً منهم جدًّا بعض الأحيان. ومرّةً انهارت قنطرة ضخمة بصوتٍ مثل هدير الرعد، بعد لحظة واحدة من مرورهم تحتها. كانت الملكة تمشي بسرعة، واضطرَّ الولدان أن يُهَرولا لمجاراتها، لكنّها لم تُظهِر أيَّ علامة على الخوف. وفكّر ديغوري: «إنّها تتحلّى بشجاعة عجيبة، وبقوّة فائقة. هي حقًّا ما أسمّيه ملكة! أتمنّى فعلاً أن تخبرنا قصّة هذا المكان».



وقد أخبرتهما فعلاً بعض الأشياء وهم يمشون. فكانت تقول: «هذا هو الباب المؤدّي إلى الزنزانات»، أو «هذا الممرُّ يؤدّي إلى غُرَف التعذيب الرئيسيّة»، أو «هذه كانت قاعة الولائم القديمة، حيث دعا جدّي الأكبر سبع مئة من النبلاء إلى وليمة وقتلهم قبل أن يكملوا شرابهم. فقد كان هؤلاء يفكّرون بالعصيان والتمرُّد».

أخيراً وصلوا إلى قاعة أكبر وأعلى من أيّة قاعة سبق أن رأياها. ومن حجمها، ومن الأبواب الكبيرة في طرفها الأبعد، ظنّ ديغوري أنّهم وصلوا أخيراً إلى المدخل الرئيسيّ. وفي هذا كان على حقّ تماماً. كانت الأبواب سوداء كلّها، وهي مصنوعة إمّا من خشب الأبنوس وإمّا من معدنٍ أسود غير موجود في عالمنا. وكانت مُمكّنة بعوارض ضخمة، معظمها أعلى من أن تصل إليها، وكلّها أثقل من أن تُرفَع، حتّى تساءل كيف يمكن أن يخرجوا.

أفلتت الملكة يد ديغوري، ورفعت ذراعها. ومدّت قامتها حتّى كامل طولها، ووقفت جامدة. ثمّ قالت شيئاً لم يقدرا أن يفهماه (لكنّه بدا مُروّعاً) وقامت بحركة كما لو أنّها كانت ترمي شيئاً نحو الأبواب. وإذا بهذه الأبواب العالية والثقيلة ترتجف ثانيةً واحدة وكأنّها مصنوعة من حرير، ثمّ انهارت حتّى لم يبقَ منها شيء إلّا كومة تراب على العتبات.

فصفر ديغوري: «ووه!»



وقالت الملكة، وهي تمسك بيد ديغوري بإحكامٍ من جديد: «هل يملك الساحر الأُستاذ خالك قوّة مثل قوّتي؟ ولكنّني سأعرف في ما بعد. أمّا الآن، فتذكّر ما قد رأيتَه. هذا هو ما يحدث للأشياء وللأشخاص إذا وقفوا في طَريقي».

وترامى من ممرّ الباب الذي صار فارغاً نورٌ أغزر بكثير من كلّ ما سبق أن رأياه في تلك البلاد. ولمّا أخرجتهما

الملكة من ذلك الممرّ، لم يُفاجئهما أن يجدا أنفسهما في الهواء الطلق. وكانت الريح التي هبّت على وجهيهما باردة، ولكنْ فاسدة قليلاً. وقد أطلّ الجميع مِن على سطيحة عالية يمتدُّ تحتها منظرٌ طبيعيٌ خلاّب.

وفي الأفق بعيداً تعلَّقت شمسٌ حمراء كبيرة، أكبر بكثير من شمسنا. وشعر ديغوري حالاً أنّ تلك الشمس أيضاً أقدم من شمسنا، إذ كانت شمساً في أواخر حياتها أتعبها الإشراف على العالم تحتها. وكان إلى يسار الشمس، وأعلى منها، نجمة وحيدة، كبيرة ومُنيرة. وكانت الشمس والنجمة هما الشيئين الوحيدين اللذين يظهران في الفضاء المُظلم، مشكّلَين زوجين كئيبين. وعلى الأرض، في كلّ اتّجاه، وعلى مدى النظر، انتشرت مدينة كبيرة لا يُرى فيها أيُّ كائن حيّ. وترامت من جميع الهياكل والأبراج والقصور والأهرام والجسور ظِلالٌ طويلة مشؤومة المنظر، في ظلّ تلك الشمس الهَرِمة. وكان في الماضي نهر كبير يتدفّق عبر المدينة، ولكنّ المياه اختفت من زمان، فما عاد النهر إلاّ خندقاً واسعاً من التراب الرماديّ.

وقالت الملكة: «انظرا جيّداً ما لَن تراه عينٌ في ما بعد. فهكذا كانت شارْن، المدينة العظيمة، مدينة ملك الملوك، عجيبة العالم، بل ربّما عجيبة العوالم كلّها. هل يملك خالك، يا صبيُّ، على أيّة مدينة كبيرة كهذه؟»

قال ديغوري: «لا». وهمَّ بأن يشرح لها أنّ خاله أندرو لا يملك على أيّة مدينة من المُدن، ولكنّ الملكة تابعت تقول:

«هيَ صامتة الآن. ولكنّني قديماً وقفتُ هنا، عندما كان الجوُّ كلُّه ضاجًّا بأصوات الحركة في شارْن، من وقْع أقدام، وصرير عجلات، وفرقعة سياط، وأنين عَبيد، وقرقعة مركبات، وقرْع طبولِ الذبائح في الهياكل. وقد وقفتُ هنا (إنمّا كان ذلك قبل النهاية بقليل) عندما كان ضجيج المعارك يتصاعد من كلّ شارِع، حتّى اصطبغ نهر شارْن باللون الأحمر». وبعدما توقّفَت قليلاً، تابعت تقول: «في لحظة واحدة، محَتِ امرأة واحدة كلّ شيء إلى الأبد».

«مَن؟» قالها ديغوري بصوت خافت، لكنّه كان قد حزر الجواب.

فأجابت الملكة: «أنا، أنا جاديس الملكة الأخيرة، لكنْ ملكة العالم».

وقد وقف الولدان صامتين، يرتجفان من الريح الباردة، فيما مضت الملكة تقول:

«كانت الغلطة غلطة أُختي. فهي دفعتني إلى ذلك. لتستقرّ عليها لعنة القوّات كلّها إلى الأبد! كنتُ في أيّة لحظة مستعدّة للمصالحة، نَعَم، ولعدم قتلِها هي أيضاً، لو قبلت أن تتنازل لي عن العرش فقط. إلاّ أنّها لم تقبل. فكبرياؤها دمّرت العالم كلّه. حتّى بعدما ابتدأت الحرب، وعد كِلا الطرفين وعداً مؤكّداً بألا يستعملا السحر. ولكن لمّا نقضت وعدها، ماذا كنتُ أقدر أن أفعل؟ ما كان أغباها! وكأنّها لم تكن تدري أنّ عندي

سحراً أكثر مّما عندها! حتّى إنّها كانت تعرف أنّني أملك سرَّ الكلمة السوداء. فهلِ اعتقدَت، وهي الضعيفة دائماً، أنّني لم أكن لأستعمل هذه الكلمة قطعاً؟»

فسأل ديغوري: «وماذا كانت هذه الكلمة؟»

فقالت الملكة جاديس: «كان ذلك سرَّ الأسرار. فقد كان معروفاً دائماً عند ملوك قومنا العظماء أنَّ هنالك كلمةً، إذا تمَّ النُطق بها مع الطقوس المناسبة، تُدمّر كلَّ كائن حيّ ما عدا مَن ينطق بها. ولكنَّ الملوك القدماء كانوا ضعفاء وجبناء، فألزموا أنفسهم والذين يأتون بعدهم جميعاً بقَسَم ثقيل ألّا يسعَوا مُجرَّد سعيٍ إلى معرفة تلك الكلمة. أما أنا، فعرفتُها من مكانٍ سرّيّ، ودفعتُ ثمناً باهظاً لأتعلّمها. ولم أستعملها حتّى أجبرتني أُختي على ذلك. قاتلتُ حتّى أغلبها بكلّ طريقة أُخرى. وسفكتُ دماء جنودي كالماء...»

فتمتمت پولي: «متوحّشة!»

وتابعت الملكة: «نشبت المعركة الكبيرة الأخيرة عنيفةً على مدى ثلاثة أيّام هُنا في شارْن ذاتها. وطوال ثلاثة أيّام أشرفتُ عليها من هذا الموقع ذاته. ولم أستعمل قوّتي حتّى سقط آخِر جنديّ من جيشي، وكانت المرأة اللعينة - أُختي - على رأس مُتمرّديها في منتصف هذه الأدراج المؤدّية من المدينة إلى السطيحة. ثمّ انتظرتُ حتّى صار بإمكاننا أن نرى إحدانا وجه الأُخرى. فأبرقت عليَّ عيناها الرهيبتان الشرّيرتان وصاحت: «النّصر!» فقلت: «النّصر،

ولكنِ ليس لكِ». ثمّ نطقتُ بالكلمة السوداء. وبعد لحظةٍ واحدة صرتُ أنا الكائنَ الحيَّ الوحيد تحت الشمس».

فقال ديغوري لاهثاً: «ولكنِ الناس؟»

سألتِ الملكة: «أيُّ ناس، يا صبيّ؟»

قالت پولي: «جميع الناس العاديّين الذين لم يؤذوكِ قَطّ. والنساء والأولاد والحيوانات».

فأجابت الملكة (وهي ما زالت تُخاطِب ديغوري): «ألا تفهمان؟ أنا كنتُ الملكة. وهؤلاء الناس جميعاً كانوا شعبي. وهل كانوا موجودين لشيءٍ غير العمل بإرادتي؟»

قال ديغوري: «كان ذلك من سوء حظّهم، على كلّ حال».

«نسيتُ أنّكَ مجرَّد ولد من عامّة الناس. فكيف يمكنك أن تفهم شؤون الدولة؟ عليك أن تتعلّم، يا صبيّ، أنَّ ما يكون خطأً في نظرك أو في نظر غيرك من عامّة الناس لا يكون خطأً عند ملكة عظيمة مثلي. فإنَّ حِمل العالم الثقيل مُلقى على أكتافنا نحن. ويجب أن نكون أحراراً من أيّ قانون. فإنَّ مصيرنا مصيرٌ رفيع ووحيد».

وتذكّر ديغوري فجأةً أنَّ خاله أندرو استعمل الكلمات ذاتها تماماً. لكنّها كانت كلمات أفخم لمّا نطقت بها الملكة جاديس، ربّما لأنَّ الخال أندرو لم يكن طوله سبع أقدام ولا كان باهر الجمال. فقال سائلاً:

«وماذا فعلتِ حينذاك؟»

«كنتُ قد نطقتُ بسحور قويّة على القاعة التي فيها تماثيل أجدادي. وكان فحوى تلك السحور أن أنام أنا بينهم كتمثال، فلا أحتاج إلى طعام أو دفء، حتى ولو ألف سنة، إلى أن يجيء شخص ويقرع الجرس فيُوقِظني».

وسأل ديغوري: «أكانت الكلمة السوداء هي ما جعل الشمس على هذه الحال؟»

فقالت جاديس: «على أيّ حال؟»

«كبيرة وحمراء وباردة إلى أقصى حدّ».

قالت جاديس: «هكذا كانت دائماً. على الأقلّ طوال مئات الألاف من السنين. أفي عالَمكما شمسٌ من نوع آخر؟»

«نعم، إنّها أصغر وأكثر اصفراراً. وهي تُعطي مقداراً أكبر من الحرارة».

فأصدرت الملكة من أعماقها آهة طويلة. ورأى ديغوري على وجهها مثل تلك النظرة الجائعة والجشعة التي رآها مؤخراً على وجه خاله أندرو. وقالت: «إذاً، عالَمُكما عالَم أصغر سنّاً!»

ثمّ توقّفت قليلاً لتنظر من جديد إلى المدينة المهجورة. حتى لو آسفة على كلّ الشرّ الذي أنزلَته هناك، فإنّها بالتأكيد لَم تُظهِر ذلك. وبعد ذلك قالت:

«لنذهب الآن. فالمكان هنا بارد عند نهاية التاريخ كلّه!»

فسأل الولدان كلاهما: «إلى أين نذهب؟»

وردّت الملكة مدهوشة: «إلى أين؟ إلى عالَمكما بالطبع!»

فنظر پولي وديغوري أحدهما إلى الآخر مشدوهَين. كانت پولي قد كرهت الملكة من البداية. وديغوري أيضاً، بعدما سمع القصّة، رأى أنّه يكفيه ما علم من أمرها. فبالتأكيد، لم تكُن من الأشخاص الذين يحبُّ الإنسان أن يأخذهم معه إلى دياره. حتّى إنّهما لو أحبّا أن يأخذاها معهما، لم يكونا يعرفان كيف يفعلان هذا. فالذي أراداه هو أن يذهبا من هناك بأنفسهما. ولكنّ پولي لم تقدر أن تصل إلى خاتمها، وطبعاً لم يكن ديغوري ليذهب من دونها. واحمرّ وجه ديغوري كثيراً فيما راح يقول متلعثماً:

«أوُه، أوُه، عالمنا. ما كنتُ أعرف أنكِ تُريدين الذهاب إلى عالمنا».

فسألَت جاديس: «لأيّ شيء أرسِلتُما إلى هُنا إن كان ليس لأخذي؟»

فردّ ديغوري: «أنا متأكّد أنّكِ لن تُحبّي عالَمنا أبداً. إنّه عالم لا يُناسبها، يا پولي، أليس كذلك؟ فهو مُمِلٌ جدًّا، وفي الحقيقة، لا يستحقّ المشاهدة!»

أجابت الملكة: «سيصير قريباً عالماً يستحقّ المشاهدة، عندما أملك عليه».

قال ديغوري: «لا، لن تقدري على ذلك. ليس الأمرُ بهذه السهولة. فإنّهم لن يسمحوا لكِ بذلك، كما تعرفين».

ابتسمت الملكة ابتسامة ازدراء، وقالت: «ملوك عظماء كثيرون اعتقدوا أنّهم يقدرون أن يصمدوا في وجه مملكة شارْن. لكنّهم جميعاً سقطوا، ونسي الناس حتّى أسماءهم. يا لك من صبيّ غبيّ! هل تعتقدان أنّني أنا، بجمالي وسحري، لَن أُخضِع عالمكما عند قدمَيَّ قبل أن تمرّ سنة واحدة؟ فحضّرا عباراتكما السحريّة وخُذاني إلى هناك حالاً».

فقال ديغوري لِپولي: «هذا وضع رهيب ومُرعِب جدًّا».

وقالت جاديس: «ربّما تخاف على خالك ذلك. ولكنّه إن أكرمَني كما يجب، ينجو بحياته ويحافظ على عرشه. لَن أذهب لأُحاربه هو. فهو ساحر عظيم على الأرجح، ما دام قد عرف كيف يرسلكما إلى هنا. أهو الملك على عالمكما كلّه أم على قسمٍ منه فقط؟»

قال ديغوري: «ليس ملكاً على أيّ مكان».

قالت الملكة: «أنت تكذب. ألا يرتبط السحر دائماً بالدم الملوكي؟ ومَن سمع يوماً بواحد من عامّة الناس يصير ملكاً؟ أنا أقدر أن أعرف الحقّ سواءٌ نطقتَ به أم لم تنطق. خالك هو الملك العظيم، والساحر العظيم في عالمكما. وهو بمهارته رأى ظلّ وجهي، في مرآة سحريّة أو في بِركة مسحورة، وحبًّا بجمالي توصّل إلى صيغة سحريّة فعّالة هزّت عالمكما من أساساته، وبعثكما عبر الخليج الواسع بين عالمٍ وعالم، ليطلب رضاي ويأخذني إليه. قولا لي، أليس هذا ما حدث؟»

فقال ديغوري: «حسناً، ليس هكذا بالضبط».

وصرخت پولي: «ليس هكذا بالضبط! كلّ ما قُلتِه باطل من أوّله لآخره!»

فصاحت الملكة: «خادمان وضيعان!» مُلتفتةً نحو پولي ومُمسِكةً إيّاها بشعرها، من أعلى رأسها، وهو أكثر الأماكن إيلاماً. ولكنْ إذ فعلت ذلك، أفلتت يدَي الولدين كليهما.

وهنا صاح ديغوري: «الآن!» وصاحت پولي: «بسرعة!»

ثمّ مدّا يديهما اليُسريَين إلى جيبيهما. ولم يُضطرّا حتّى إلى لبس خاتميهما. ففي اللحظة التي فيها لمساهما، اختفى من أمام أعيُنهما ذلك العالَمُ الكئيب الموحش. وراحا يندفعان صعوداً، فيما راح ضوء أخضر دافىء يقترب أكثر فأكثر من فوق رأسيهما.

الفصل السادس

بداية مشاكل الخال أندرو

صرخت بولي: «أفلِتني! أفلِتني!»

فقال ديغوري: «لستُ مُمْسِكاً بكِ!»

ثمَّ خرج رأساهما من البركة، ومرَّة جديدةً وجدا حواليهما الهدوء الذي يكلّله ضوء الشمس والذي يعمُّ الغابة بين العوالم. وبدا لهما ذلك المكان أغنى وأكثر دفئاً وسلاماً ممّا كان سابقاً، بعد الركود والفساد والخراب التي شاهداها في المكان الذي غادراه قبل لحظة. وأعتقد أنّهما لو مُنِحا الفرصة لكانا من جديد نسيا مَن هما ومِن أين جاءا، واستلقيا بين النوم واليقظة يتمتّعان بالاستماع إلى نموّ الأشجار. ولكنْ هذه المرّة حصل شيء جعلهما يظلّان مستيقظين بقدر الإمكان. فإنّهما حالما طلعا إلى العشب، تبيَّن لهما أنهما ليسا وحدهما. إذ إنَّ الملكة، أو الساحرة (بغض النظر عن الإسم الذي تحب أن تدعوها بها) طلعت معهما، متشبّثةً بشعر بولي. ولهذا السبب كانت بولي تصرخ: أفلتني!»

وقد برهن هذا أيضاً على شيء آخر بخصوص الخواتم

لم يخبر الخال أندرو ديغوري به، لأنّه هو نفسه لم يكن يعرفه. فلأجل الانتقال من عالَم إلى عالَم بأحد تلك الخواتم، ما كان عليك أن تلبسه أو تلمسه بنفسك، بل كان يكفي أن تلمس شخصاً يلبسه. وبهذه الطريقة يعمل الخاتم عمل المغنطيس، وكلُّ إنسان يعرف أنّك إذا التقطْتَ إبرة بمغنطيس فأيُّ إبرة أخرى تلامس الأُولى تطلع معها أيضاً.

وإذا رأيتَ الملكة جاديس الآن في الغابة، تظهر لك مختلفة. فقد كانت أكثر شُحوباً من ذي قبل، صفراءَ جدًّا حتّى ما كاد يبقى أيُّ أثر من آثار جمالها. وكانت حانية الظهر، وكأنّها تُلاقي صعوبة في التنفُّس، كما لو كان هواء المكان قد خنقها. وما عاد أيٌّ من الولدين خائفاً منها الآن.

قالت بولي: «أفلتيني! أفلِتي لي شعري. ماذا تريدين بهذا؟»

وقال ديغوري: «هيّا! أفلتي لها شعرها، أفلتيهِ حالاً!»

ثمَّ دار كِلاهما، وصارعاها. فكانا أقوى منها، وفي ثوانٍ قليلة أجبراها على إرخاء يدها. فرجعت إلى الوراء مترنّحةً وهي تلهث، وبدت في عينيها ملامح الرعب.

وقالت بولي: «بسرعة يا ديغوري! لنغيِّر الخاتم ونغطس في بِركة الرجوع إلى ديارنا».

وصرخت الساحرة بصوت ضعيف مُتلعثِم وراءهما:

«النجدة، النجدة! رحمةً بي! خُذاني معكما. لا يمكنكما تركي في هذا المكان المروّع. إنّه يقتلني!»

فقالت پولي بغلٍّ وحقد: «هذا شأنٌ من شؤون الدولة، كما حدث عندما قتلت كلَّ أولئك الناس في عالمك الخاصّ. هيا، أسرع يا ديغوري».

كانا قد لبسا الخاتمين الأخضرين، ولكنّ ديغوري قال: «يا ويلاه! ماذا يجب علينا أن نعمل؟» فلم يكن يقدر أن يمنع نفسه من الشعور بالندم على الملِكة.

إنمّا قالت پولي: «لا تكن غبيّاً هكذا! من المؤكّد أنها تحاول خداعنا. هيّا، تعال!» ثمّ غطس الولدان كلاهما في بركة الرجوع، وپولي تفكّر: «من الخير أنّنا عملنا هذه العلامة».

ولكن لمّا قفزا، أحسّ ديغوري إصبعاً وإبهاماً باردَتين كبيرتين أمسكتا بأذنه. وبينما راحا يغوصان وقد بدأت تظهر لهما أشكال عالَمنا مشوّشة، قويت مسكة الإصبع والإبهام. فيبدو أن الساحرة كانت تستعيد قوتها. وصارع ديغوري وقاوم رافساً، ولكن ذلك لم ينفعْ. وفي لحظة واحدة، وجدا أنفسهما في مكتب الخال أندرو، ورأيا الخال أندرو بنفسه أمامهما مُحدّقاً إلى المخلوقة العجيبة التي أحضرها ديغوري لدى رجوعه ممّا وراء العالم.

كان من حقه أن يُحدّق. وديغوري وپولي أيضاً حدّقا. فما كان من شك في أنّ الساحرة قد تغلّبت على ضعفها.

وإذا رآها الواحد في عالمنا هذا، وحولها أشياؤنا المعتادة، فلا بدَّ أن تخطف الأنفاس حقًّا. كانت في شارن مخيفة كفاية، أما في لندن فكانت مُروّعة! وما كانا قد أدركا حتّى الآن كم كانت كبيرة. «يصعب أن تكون بشريّة»، ذلك ما فكّر به ديغوري لمّا نظر إليها. وربمّا كان على حقّ، لأنّ بعضهم يقولون إنّ في عائلة شارْن الملوكيّة دمَ عمالقة. ولكنْ حتّى طولها لم يكن شيئاً يُذكَر بالنسبة إلى جمالها وشراستها ووحشيّتها. فقد بدت حيّة أكثر بعشر مرّات من معظم الناس الذين يقابلهم الواحد في لندن. وصار الخال أندرو ينحني ويفرك يديه، وقد ظهرت عليه بالحقيقة علامات الخوف الشديد، حتّى ظهر كأنّه قزم صغير بجانب الساحرة. ومع ذلك، كما قالت پولي في ما بعد، كان بين وجهه ووجهها نوعٌ من الشبه، من جهة الملامح. كان ذلك هو المنظر الذي يلوح على وجوه جميع السَحَرة الأشرار، «العلامة» التي قالت جاديس إنّها لم تجدها على وجه ديغوري. وكان في رؤية الاثنين معاً شيءٌ جيّد، ألا وهو أنّك لا تعود تخاف من الخال أندرو، تماماً كما لا تعود تخاف من دودة بعد أن ترى حيّة سامّة، ولا تعود تخاف من بقرة بعد أن ترى ثوراً هائجاً.

وفكّر ديغوري داخل رأسه: «أُفّ! أهو ساحر؟ ليس كثيراً. فهي الآن الساحرة الحقيقية».



وظلّ الخال أندرو يفرك يديه وينحني. كان يحاول أن يقول كلاماً مهذّباً جدًّا، ولكنّ فمه جفّ بالكامل فلم يقدر أن يتكلّم. إنّ «اختبار الخواتم» الذي أجراه – كما سمّاه – حقّق نجاحاً أكثر ممّا تمنّى. فمع أنّه اشتغل بالسحر سنين كثيرة، فقد كان دائماً يترك (بقدْر المستطاع) جميع الأخطار لغيْرِهِ، ولم يحدث له من قبل أيُّ شيء من هذا النوع.

ثمّ تكلّمت جاديس، بصوتٍ غير عالٍ كثيراً، ولكنْ كان في صوتها ما جعل الغرفة كلّها تهتزّ:

«أين الساحر الذي استدعاني إلى هذا العالم؟»

فقال الخال أندرو لاهثاً: «أنا أتشرّف جدًّا – لي كلّ السرور – حصلت لي بهجة غير متوقّعة إلى أبعد حدّ – لو كانت لي فقط فرصة القيام ببعض التحضيرات – لكنت – كنتُ...»

وقالت الساحرة: «أين الساحر، يا غبيّ؟»

«أنا – أنا هو يا سيّدتي. أرجو أن تغضّي نظركِ عن – عن أيّ وقاحة ربّما عملها هذان الولدان. أُوكّد لكِ أنّني لم أقصد قطّ...»



«أنت؟» قالتها الملكة بصوت أكثر ترويعاً. ثُمَّ بخطوةٍ واحدة، عبرت الغرفة، وأمسكت بيدها قبضةً كبيرة من شعر الخال أندرو الأشيب ودفعت رأسه إلى الوراء حتّى تطلّع وجههُ إلى وجهها. ثُمَّ تفحّصت وجهه كما سبق أن تفحّصت وجه ديغوري في قصر شارْن. فراح يطرف بعينيه ويلحس شفتيه بتوتّر طوال الوقت. وأخيراً أفلتته بصورة مفاجئة حتّى ترنّح وسقط مرتطِماً بالحائط خلفَه فقالت له بازدراء:

«لقد فهمتُ، أنت ساحر - من نوع رديء. قِف، يا حقير، ولا ترفع رأسك أمامي كما لو كنت تتكلّم إلى شخصٍ يُساويك. كيف تعلّمتَ السحر؟ أنت لستَ صاحبَ دمٍ ملوكي... إنّني أُقسِم على هذا!»

فقال الخال أندرو مُتلعثِماً: «حسناً... آ... ربّما ليس بالمعنى الدقيق. ليس دمي ملوكيًّا تماماً. ولكنَّ آل كِترلي عائلة قديمة جدًّا، يا سيّدتي. عائلة قديمة من منطقة دورسِتشاير، يا سيّدتي».

قالت الساحرة: «أسكت! أنا أعرف ما أنت. أنتَ ساحر عابث متطفّل صغير يعمل بالقواعد والكتُب. ليس في دمك وقلبك سحرٌ حقيقيّ. لقد وُضِع حدٌّ لأمثالك في عالمي قبل ألف سنة. ولكنْ هُنا سأسمح لك بأن تكون خادمي».

«سأكون سعيداً جدًّا - مبتهجاً بأن أخدمك أيَّ خدمة - هذا من دواعي سروري - كوني على ثقة!»

«اسكت! أنت كثير الكلام. استمع لمهمّتك الأولى. أرى أنّك في مدينة كبيرة. أحضِر لي في الحال مركبة، أو بساطاً طائراً، أو تِنّيناً جيّد التدريب، أو مهما كان مألوفاً في بلادك للملوك والنبلاء. ثمّ خُذني إلى أماكن أقدر فيها أن أحصل على ثياب وجواهر وعبيدٍ ممّا يليق برتبتي. غداً أبدأ بغزو العالم!»

فقال الخال أندرو لاهثاً: «أنا... أنا ذاهب لأطلُبَ لك عَرَبة أُجرة في الحال».

وما إن وصل إلى الباب، حتّى قالت له الساحرة: «قِف! لا تحلم بخداعي. عيناي تقدران أن تريا ما وراءَ الجدران وداخلَ عقول الناس. وستكونان عليك أينما ذهبت. فعند أوّل علامة على العصيان، أُلقي عليك سُحوراً تجعل أيَّ شيء تقعد عليه كالحديد المحمّى بالنار، وكُلّما نِمتَ في سرير يكون عند رجليك قِطعٌ من الثلج غير منظورة. والآنَ اذهب!»



فخرج العجوز صاغراً وكأنّه كلبٌ أخفى ذيله بين رجليه!

وخاف الولدان عندئذٍ أن تقول لهما جاديس شيئاً عمّا حدث في الغابة. ولكنْ تبيَّن لهما أنها لم تكن تتذكَّر ذلك قط، لا آنذاك ولا في ما بعد. فأنا أعتقد (ويعتقد ديغوري أيضاً) أنَّ عقلها كان من نوع لا يمكنه أن يتذكَّر ذلك المكان الهادىء أبداً؛ ومهما أخذتها إلى هناك ومهما طالت مدّة بقائها هناك فما كانت لتعرف شيئاً عن ذلك المكان. ومع أنها بقيت الآن مع الولدين وحدها، لم يلفت انتباهَها أيٌّ منهما. وكان ذلك أمراً تتصف به. ففي شارْن لم يهمّها أمر پولي (إلّا في النهاية) لأنَّ ديغوري كان الشخص الذي أرادت أن تستغلَّه. وإذ صار عندها الآن الخال أندرو، لم يعُد أمر ديغوري يهمُّها. وأتوقَّع أن تكون جميع الساحرات بهذه الصفات. فإنَّهنَّ لا يلتفتن إلى الأشياء أو الأشخاص إلّا إذا قدرن أن يستخدمنها. إنَّهنَّ عمليّات على نحوٍ رهيب! وهكذا ساد صمتٌ في الغرفة دقيقةً أو دقيقتين. ولكنْ كان يمكنك أن تعرف من خَبْط جاديس للأرض بقدمها أنَّ صبرها بدأ ينفد.

ثمَّ قالت وكأنَّها تُحدِّث نفسها: «ماذا يفعل ذلك الغبيُّ العجوز؟ كان عليَّ أن أُحضِر سوطاً». وخرجت من الغرفة مُتبخترةً للبحث عن الخال أندرو، دون أن تُلقي على الولدين ولو نظرةً واحدة.

فقالت پولي: «وُوه!» متنهِّدةً تنهُّدةَ استراحةٍ طويلةً. وأضافت: «والآن يجب أن أرجع إلى البيت. لقد تأخَّرتُ كثيراً، ولا بُدَّ أن ألقى عقاباً».

وقال ديغوري: «طيِّب، لكن ارجعي بأسرع ما يمكنك. إنَّ وجودها هُنا مخيف، وعلينا أن نرسم خطَّةً ما».

قالت پولي: «الأمر يتوقَّف على خالك الآن. فهو مَن أدخلنا هذه الورطة باشتغاله في السحر».

«على كلّ حالٍ سترجعين، أليس كذلك؟ ومهما كلَّف الأمر، لا يمكن أن تتركيني في هذه الورطة وحدي».

فقالت پولي بلهجة تميل إلى البرودة: «سأرجع إلى البيت من طريق النفق، فهو أقصر طريق. وإذا كنت تريد منّي أن أرجع، أفلا يجب عليك أن تعتذر؟»

فقال ديغوري متعجّباً: «أعتذِر؟ أليس هذا تصرُّف بنات غريباً؟ ماذا فعلتُ؟»

قالت پولي بسخرية: «لا شيء بالطبع! إلّا أنّك كدت تخلع معصمي في تلك الغرفة الملأى بتماثيل الشمع، مثلَ مُستأسِدٍ جبان. إلّا أنّك قرعتَ الجرس بالمطرقة، مثل غبيٍّ مُغفَّل. كما أنّك تمهَّلتَ في الغابة حتّى تمكَّنتْ من الإمساك بك قبل أن نقفز إلى بِركتنا الخاصّة. ألا يكفي هذا كلُّه؟»

فقال ديغوري وقد فوجىء كثيراً: «أوه! حسناً، سأعتذر. وأنا بالحقيقة آسِف عمّا حدث في غرفة تماثيل الشمع. ها أنا قد اعتذرتُ. فالآن، كوني صادقة معي وارجعي. وإن لم ترجعي، أكُنْ في مأزق حَرِج».

«لا أفهم ما قد يحدث لك. فالسيّد كِترلي هو مَن

سيقعد على كراسي حمراء كالجمر ويوضع الثلج في سريره. أليس كذَلك؟»

قال ديغوري: «لا أقصد هذا. فما يُقلقني هو أمّي. لنفترضْ أنّ هذه المخلوقة دخلت غرفة أمّي، فقد تُخيفها جداً».

وقالت پولي بصوتٍ كاد يكون مختلفاً: «أوه، فهمت! طيّب، سنعتبر هذا صُلحاً. سأرجع - إذا قدرت. أما الآن فعليَّ أن أذهب». ثمّ زحفت عبر الباب الصغير إلى داخل النفق. وإذا بذلك المكان المُظلم بين العوارض، بعدما بدا مُثيراً للحماسة ومحفوفاً بالمغامرة إلى آخِر حدّ قبل ساعات قليلة، يبدو مألوفاً ومريحاً جدًّا الآن.

والآن، علينا أن نرجع إلى الخال أندرو. فإنّ قلبه الضعيف الهَرِم أخذ يخفق بشدّة من الخوف وهو يترنّح نزولاً على درج العليّة، وظلّ يمسح جبينه بمنديل. ولمّا وصل إلى غرفة نومه، وكانت في الطابق الأسفل، دخل وأقفل الباب وراءه. وكان أول شيء فعله أنّه فتّش في خزانة ملابسه عن قنّينة وكأس نبيذ كان يخفيهما هناك دائماً حيث لا تقدر الخالة لِتي أن تجدهما. ثمّ صبّ لنفسه كأساً كاملة من شرابٍ ثقيلٍ وعتيق، وشربها بجرعة واحدة. وبعد ذلك سحب نَفَساً عميقاً، وقال لنفسه:

«بشرفي، لقدِ انقطع حَيلي، إذ خضّتني هذه الأحداث جدًّا، وأنا في هذا العمر!»

ثمّ صبّ كأساً أخرى وشربها أيضاً. وبعد ذلك بدأ

يغيّر ثيابه. لم ترَ قطُّ مثل هذه الثياب، أما أنا فأستطيع أن أتذكّرها. ذلك أنّه لبس قميصاً بقبّة عالية جدًّا ولمّاعة وقاسية، من ذلك النوع الذي يَضطرّك إلى رفع ذقنك عالياً كلّ الوقت. ولبس صُدرة بيضاء عليها نقشة، وقد دلّى سلسلة ساعته الذهبيّة بترتيب عليها من قدّام. ولبس أيضاً سترته الطويلة الفُضلى، تلك التي كان يحتفظ بها للأعراس والجنائز. ثمّ أخرج قبّعته الطويلة الفُضلى ومسحها جيّداً واعتمرها. وكان على منضدة غرفة نومه زهريّة (وضعتها هناك الخالة ليتيشيا)، فتناول زهرة ودسّها في عروة سترته. ثمّ أخرج منديلاً نظيفاً (جميلاً جداً لا يمكنك أن تشتري مثله اليوم) من جارور صغير إلى جهة اليسار، ووضع عليها بضع نقاط من العطر. وتناول نظّارته ذات الشريط الأسود العريض وثبّتها على عينه، ثمّ تأمّل صورته في المرآة.

إنّ عند الصغار، كما تعلم، بلاهةً من نوع خاصّ؛ ولكنّ عند الكبار بلاهةً من نوع آخر. وفي تلك اللحظة كان الخال أندرو قد بدأ يتّصف بالبلاهة بطريقة راشدة جدًّا. فإذ صارت الساحرة الآن في غرفة أُخرى غير التي هو فيها، نسي بسرعة كيف سبّبت له الرعب، وأخذ يفكّر أكثر في جمالها العجيب. وظلّ يقول لنفسه: «يا لها من امرأة فاتنة، رائعة الجمال. إنّها، يا سيدي، مخلوقة فائقة!» كما استطاع أيضاً، بطريقة ما، أن ينسى أنّ الولدين هما من أحضرا هذه «المخلوقة الفائقة»، فقد شعر كما لو كان هو نفسه مَن استدعاها من العوالم المجهولة.

وإذ نظر في المرآة، قال لنفسه: «أندرو، يا لك من فتى! ما زلتَ تبدو شاباً وجميلاً في عمرك المتقدّم هذا. أنت رجل بديع المنظر، يا سيدي».

أما رأيتَ أنَّ العجوز الأبله قد بدأ يتصوَّر أنَّ الساحرة ستقع في حبّه؟ وربّما كان لكأسَي الشرابِ دَخْلٌ ما بهذا، كما كان لثيابه الفاخرة أيضاً. ولكنّه على كلّ حال كان مختالاً ومنفوشاً كالطاووس، ولهذا صار ساحراً.

بعد ذلك فتح قفل الباب، ونزل على الدرج، وأرسل الخادمة لإحضار عربة صغيرة (كان عند الجميع خَدَم كثيرون تلك الأيّام). ثمَّ نظر إلى داخل غرفة الاستقبال. وهناك، كما توقّع، وجد الخالة ليتيشيا. وكانت منشغلة بإصلاح فِراش موضوع على الأرض بقرب الشبّاك، وهي راكعة عليه.

فقال الخال أندرو: «آه، يا عزيزتي ليتيشيا! آه، يجب أن أخرج. فقط أقرضيني خمسة جنيهات، أو ما يقاربها؛ هُناك صبيَّة جميلة...»

أجابت الخالة ليتيشيا بصوتها الحازم، دون أن ترفع عينيها عن شغلها: «لا، يا عزيزي أندرو. قلتُ لك ألف مرَّة إنّني لن أُقرضك مالاً!»

«رجاءً الآن، يا أُختي الطيِّبة، لا تُثيري المشاكل. فالأمر مهمّ جداً وإن لم تُعطيني، تضعيني في موقف حرجٍ جداً!»



فقالت الخالة ليتيشيا، وهي تنظر إلى وجهه مباشرةً: «أندرو! عجباً، كيف لا تستحي أن تطلب منّي مالاً؟»

كان وراء هذه الكلمات قصَّةٌ طويلة مملَّة من قصص عالم الكبار. وكلُّ ما يلزمك أن تعرف عنها هو أنَّ الخال أندرو حين «أدار الأعمال التي تخصُّ ليتيشيا العزيزة»

دون أن يقوم بأيّ عمل فعليّ، بل والاستدانة لشراء المشروب والسيكار (والخالة ليتيشيا تسدُّ الديون عنه مراراً وتكراراً)، جعلها أفقر بكثير مما كانت منذ ثلاثين سنة.

وقال الخال أندرو: «يا أُختي العزيزة، أنتِ لا تفهمين. سأُضطرُّ إلى إنفاق بعض المصاريف غير المتوقَّعة اليوم لضيافة شخصٍ ما. فهيّا، لا تكوني متعبةً!» فسألت الخالة ليتيشيا: «ومن ستُضيِّف يا أندرو؟ قُل لي إذا سمحت!»

«لقد وصل منذ قليلٍ ضيفٌ مُميّز جدًّا».

فقالت الخالة ليتيشيا: «ضيف مُميَّز؟ هذا هراء! لم نسمع قرعاً لجرس الباب طول الساعة الماضية!»

في تلك اللحظة انفتح الباب على وسعه فجأةً. والتفتتِ الخالة لِتَري فأذهلها أن ترى امرأةً ضخمة فاخرة الثياب، عارية الذراعين وبرّاقة العينين، واقفةً بالباب. ولم تكُن تلك إلا الساحرة نفسها!

الفصل السابع

ماذا جرى عند الباب الأماميّ؟

قالت الساحرة بصوتٍ كالرعد: «هيّا، يا عبداً كسولاً، كم يجب أن أنتظر وصول عربتي؟» فانكمش الخال أندرو مرتعداً. وإذ حضرتِ الآن فعلاً، تبخّرت جميع الأفكار السخفية التي خطرت بباله لمّا نظر إلى المرآة. ولكنَّ الخالةِ ليتيشيا نهضت من ركوعها وتقدّمت إلى وسط الغرفة، ثمَّ قالت بلهجةٍ باردة:

«هل لي أن أسألك، يا أندرو، مَن هذه الشابة؟»

فقال متلعثماً: «هي غريبة مميّزة، شخصيّة هامّة جدًّا».

فردت الخالة ليتيشيا: «هراء!» ثمّ التفتت نحو الساحرة قائلةً: «اخرجي من بيتي في هذه اللحظة، يا وقحةً بلا حياء، وإلّا استدعيتُ الشرطة!» فقد ظنّت أنَّ الساحرة لا بدَّ أن تكون امرأةً خرجت من السيرك، وكانت لا تتقبّل الذراعين العاريتين.

قالت جاديس: «أيّة امرأةٍ هذه؟ اركعي أمامي، يا خادمةً عديمة القيمة، قبل أن أُدمِّركِ!»

وقالت الخالة ليتيشيا: «يا صبيّة، ممنوعٌ الكلام المتعجرف في هذا البيت، لو سمحتِ».

وفي الحال، كما لاحظ الخال أندرو، امتدَّت قامة الملكة إلى طولٍ أطول. وقدحت النار من عينيها، ومدَّت يدها ملوِّحة بالإشارة ذاتها، وناطقةً بالكلمات المروِّعة ذاتها، كما فعلت حين حوَّلت منذ مدَّة قصيرة أبواب قصر شارْن تُراباً مُكوَّماً. ولكنْ لم يحدث شيء، ما عدا أنَّ الخالة ليتيشيا، اعتقاداً منها أنَّ تلك الكلمات الرهيبة كانت كلاماً عادياً، قالت:

«كما ظننتُ. هذه المرأة سكرانة جدًّا! حتّى إنها لا تقدر أن تتكلّم كلاماً مفهوماً».

ولا بدَّ أنّها كانت لحظة رهيبة واجهتها الساحرة لمّا أدركت فجأةً أنَّ قدرتها على تحويل الناس إلى تُراب، هذه القدرة التي كانت واقعاً ملموساً في عالمها الخاصّ، لم تكُن فعّالة في عالمنا نحن. ولكنّها لم تفقد أعصابها ولو ثانيةً واحدة. فبغير أن تفكّر في فشلها مُطلَقاً، اندفعت إلى قُدّام، وأمسكت بالخالة ليتيشيا من رقبتها وركبتيها، ورفعتها عالياً فوق رأسها كما لو كانت بوزنِ دُمية، ثمَّ رمَتها عبر الغرفة. وبينما الخالة ليتيشيا ما زالت طائرةً في الهواء، جاءت الخادمة (وقد كان ذلك الصباح مُبهجاً ومشوِّقاً لها) مُطِلّةً برأسها من الباب لتقول: «كما أمرتَ، يا سيدي، حضرت العربة».

فقالت الساحرة للخال أندرو: «تقدَّم، يا عبد!» وبدأ يُتمتِم بشيء عن «العنف المؤسف الذي ستعقبه ندامة ولا بدَّ من الاعتراض عليه»، ولكنَّ نظرة واحدة من جاديس ربطت لسانه. ثمَّ أخرجته من الغرفة ومن البيت. ونزل ديغوري راكضاً على الدرج في الوقت المناسب ليرى الباب الأماميَّ ينغلق وراءهما. فقال:

«ويلاه! إنّها طليقة في لندن، ومعها الخال أندرو. تُرى، أيُّ شيء سيحدث الآن؟»

وقالت الخادمة: «يا سيّد ديغوري، أظنُّ أنَّ الآنسة كِتِرلي تأذَّت بصورة ما». (وكانت الخادمة تستمتع فعلاً بما يجري ذاك النهار). فاندفعا كِلاهما إلى غرفة الاستقبال لرؤية ما جرى.

لو سقطت الخالة ليتيشيا على بلاط الغرفة، أو على السجّادة، لتكسَّرت كلُّ عظامها، كما أعتقد. ولكنْ من حُسن حظّها، أنّها وقعت على الفراش. وقد كانت الخالة ليتيشيا امرأةً كبيرة السنّ صلبة العود: هكذا كانت معظم الخالات في تلك الأيّام. فبعدما تناولت قليلاً من «كربونات النشادر» وقعدت بضع دقائق، قالت إنّه ما بها شيءٌ إلّا بعض الرضوض. وسرعان ما عادت إلى السيطرة على الوضع.

فقالت للخادمة (التي لم تعِش مثل ذلك اليوم من قبل): «سارة، اذهبي إلى مخفر الشرطة فوراً، وقولي لهم إنَّ مجنونة خطرة تجول في المدينة. سأخذ الغداء للسيّدة كيرك

بنفسي». وبالطبع، كانت السيِّدة كيرك هي أُمّ ديغوري.

وبعدما تغدَّت أُمّ ديغوري، تناول ديغوري والخالة ليتيشيا غداءهما. ومن ثمّ أخذ ديغوري يفكّر بجديّة.

كانت المشكلة تتعلق بكيفية إرجاع الساحرة إلى عالمها الخاصّ، أو على الأقلّ كيف تُخرَج من عالمنا، بأسرع ما يمكن. ومهما حدث، فيجب ألّا يُسمَح لها بالتجوال حول البيت على هواها. ويجب ألّا تراها أمّه. وإن كان ممكناً، يجب أيضاً منعها من التجوال على هواها في لندن. لم يكن ديغوري في غرفة الاستقبال لمّا حاولت أن «تُدمّر» الخالة لِتّي، ولكنّه سبق أن رآها لمّا «دمّرت» الأبواب في شارْن. وهكذا عرف قواها الرهيبة، ولم يكن قد عرف أنّها فقدت شيئاً من قوتها عند دخولها إلى عالمنا. وقد عرف أنها تنوي السيطرة على عالمنا. ففي تلك اللحظة، بقدْر ما استطاع أن يتصوّر، توقّع أنها لا بدّ أن تكون عاكفة على تدمير قصر الملكة أو مجلس النوّاب، وكان شبه متأكّدٍ أنّ عدداً كبيراً من رجال الشرطة قد صار أكواماً صغيرة من التراب. وبدا أنه لا يقدر أن يعمل أيّ شيء لمنع ذلك.

ثمّ فكّر ديغوري: «لكنْ يبدو أنّ الخواتم تعمل كالمغنطيس. فلو تمكّنت فقط من لمسها ثمّ لبستُ خاتمي الأصفر، لانتقلنا كِلانا إلى الغابة بين العوالم. يا تُرى، هل تضعف هناك من جديد؟ أيؤثّر عليها المكان، أم كان ذلك نتيجة صدمة إخراجها من عالمها؟ ولكنّني أعتقد أنّ عليّ القيام بالمغامرة. إنمّا كيف أعثر على هذه المتوحّشة؟ لا

أظنّ أنّ الخالة ليتيشيا تسمح لي بالخروج، إلّا إذا قلتُ لها أين أذهب. وليس في جيبي إلّا قطعة نقد صغيرة جدًّا. فأنا أحتاج إلى مبلغ أكبر بكثير أُجرةً للأوتوبيسات وقطارات الكهرباء، إذا خرجتُ لأفتّش في جميع أنحاء لندن. وعلى كلّ حال، ليس عندي أدنى فكرة عن الأماكن التي عليّ أن أُفتّش فيها. تُرى، أما زال الخال أندرو معها؟»

أخيراً بدا له أنّ الشيء الوحيد الذي يمكنه أن يعمله هو أن ينتظر على أمل أن يرجع الخال أندرو والساحرة. فإذا رجعا، يركض خارجاً ويتمسّك بالساحرة ويلبس خاتمه الأصفر قبل أن تُتاح لها فرصة الدخول إلى البيت. وكان معنى ذلك أنّ عليه أن يراقب الباب الأماميّ كما تراقب الهرّة نقرة الفأرة، ولذا لم يكن يجرؤ على مغادرة مركزه لحظة واحدة. وهكذا دخل إلى غرفة الطعام و«سمّر وجهه» بالنافذة، كما يقولون. وكانت تلك النافذة تُطِلّ على الدرج المؤدّي إلى الباب الأماميّ وتُشرِف على الشارع، بحيث لا يمكن لأحد أن يصل إلى الباب الأماميّ بغير أن يراه. إذ ذاك فكّر: «تُرى، ماذا تعمل بولي الآن؟»

وظلّ ذلك يشغل باله كثيراً حتّى مرّ أوّل نصف ساعة بطيئاً. إنمّا لا داعي لأنْ تشغل أنت بالك، لأنّي سأقول لك! فقد وصلت بولي إلى البيت متأخّرة عن الغداء، وحذاؤها وجَورباها مُبلّلة جدًّا. ولمّا سألوها أين كانت وماذا كانت تعمل، قالت إنّها كانت مع ديغوري

كيرك. وبعد مزيد من الأسئلة، قالت إنّها بلّلت رجليها في بركة ماء، وإنّ البركة كانت في غابة. وإذ سألوها عن موقع الغابة، قالت إنّها لا تعرف. فسألوها هل كانت في أحد المُتنزّهات العامّة، فقالت بمنتهى الصدق إنّها تفترض أنّها كانت في مُتنزّهٍ ما. من هذا كُلّه استنتجت أُمُّ بولي أنّها ذهبت إلى مكانٍ بعيد دون أن تقول لأحد، ودخلت متنزّهاً غريباً وتسلّت بالقفز في البِرَك. لأجل ذلك قالوا لها إنّها أساءت التصرُّف كثيراً وإنّهم لن يسمحوا لها بأن تلعب مع «ذلك الصبيّ ابن كيرك» في ما بعد، إذا حصل شيء من ذلك مرّة ثانية. ثُمّ قدّموا لها غداءها، ناقصاً كلَّ الأطايب والأشياء اللذيذة، وعاقبوها بأن تنام في سريرها ساعتين كاملتين. وكان ذلك أمراً يحصل للصغار كثيراً في تلك الأيّام.

إذاً، بينما كان ديغوري يُحدّق خارج نافذة غرفة الطعام، كانت بولي مستلقية في سريرها، وكلاهما يفكّران كم يمكن أن يمرّ الوقت ببطء. أمّا أنا فأظنّ أنّني أفضّل أن أكون محلّ بولي. فقد كان عليها فقط أن تنتظر نهاية ساعتَيها. وأمّا ديغوري، فكلما مرت بضع دقائق، كان يسمع صوت عربة أُجرة، أو عربة خبّاز، أو صبيّ لحّام وهو ينعطف عند زاوية الشارع، فيفكّر: «ها قد جاءت!» ثمّ يتبيّن له عكس ذلك. وبين هذه الإنذارات الكاذبة، طوال ما بدا ساعاتٍ لا تنتهي، كانت ساعة الحائط تُتكتِك، وذبابةٌ كبيرة – عالية وبعيدة عن متناول اليد – تطنّ على زجاج

النافذة، وقد كان ذلك البيت واحداً من تلك البيوت التي يسودها الصمت والسكون بعد الظهر، وتبدو كأنها تفوح منها رائحة لحم الغنم.

وفي أثناء مراقبته وانتظاره الطويلَين، حدث أمر بسيط ينبغي لي أن أذكره، لأن شيئاً هامّاً نتج منه في ما بعد. فقد جاءت امرأة تحمل بعض العنب إلى أُمّ ديغوري، وإذ انفتح باب غرفة السُفرة لم يقدر ديغوري ألّا يتسمّع حديث الخالة ليتيشيا وتلك المرأة في الممر.

تناهى إليه صوت الخالة ليتيشيا وهي تقول: «ما أحسن عناقيد العنب هذه! أنا واثقة بأنّه إذا كان ينفعها أيُّ شيء، فهذه العناقيد ستنفعها. ولكن يا لها من مسكينة، مابيل هذه الصغيرة العزيزة! أخشى أن تكون بحاجة إلى فاكهة من أرض الشباب حتّى تفيدها الآن. فلا شيء في هذا العالم يفيدها كثيراً». ثم خفضتا كِلتاهما صوتيهما وقالتا أشياء أُخرى لم يقدر أن يسمعها.

لو أنّه سمع ذِكر أرض الشباب قبل أيّام قليلة، لكان ظنّ أنّ الخالة ليتيشيا إنّما تتحدّث دون أن تقصد شيئاً معيّناً، كما يفعل الكبار عادةً، ولم يكن ذلك ليُثير اهتمامه. بل كاد يظنّ ذلك الآن أيضاً. ولكنّ فجأةً خطر على باله أنّه الآن يعرف (ولو كانت الخالة ليتيشيا لا تعرف) أنّ في الكون عوالم أُخرى حقّاً، وأنّه هو نفسه كان في عالمٍ منها. فعلى ذلك الأساس، ربّما وُجدت أرض شباب حقيقيّة في مكانٍ ما. وربّما وُجد أيُّ شيء تقريباً. فرُبّما وُجدت فواكه

في عالَم من العوالم الأخرى يُمكِن أن تشفيَ أمَّه فعلاً! أوه،... أنت تعرف حقيقة شعورك إذا بدأتَ تتمنّى شيئاً تريده برغبة شديدة. فقد تكاد تُقاوم تمنّيك، لأنّه أحسن من أن يكون صحيحاً، ولا شكَّ أنّك مُنيت بخيبةِ أملٍ كثيراً من قبل. هكذا كان شعور ديغوري. ولكنْ لم يكُن ينفعه أن يحاول خنق هذا الأمل. فربّما يمكن تحقُّق هذا الأمل. وقد سبق أن حدثت فعلاً أمورٌ غريبة كثيرة. ثمّ إنّ عنده الخاتمَين السحريَّين. فلا بدّ أن توجد عوالم يمكنه أن يذهب إليها بواسطة كلّ بِركة من بِرَك الغابة. ومن الممكن أن يفتّش في كلّ واحدٍ من تلك العوالم. وبعد ذلك تصحّ والدته وتتعافى، ويصير كلُّ شيء في خير من جديد. لقد نسي كلّ ما يتعلّق بالمراقبة وانتظار الساحرة. وبينما كانت يده تمتدُّ إلى داخل جيبه، حيث خاتمُه الأصفر، سمع فجأةً وقْع حوافر حصانٍ يعدو. ففكّر: «تُرى، ما هذا؟ عربة إطفاء؟ أيُّ بيت يحترق، يا تُرى؟ يا ويلاه! إنّها آتية إلى هنا. ياه! إنّها هي».

ولا ضرورة لأنْ أقول لك مَن قصد بقوله «هي».

فأوّلاً أطلّت عربة الأُجرة. ولم يكُن في مقعد السائق أحد، بل على السطح – لا قعوداً بل وقوفاً على السطح – كانت جاديس، ملكةُ ملكات شارْن ورعبُها، تترجّح بتوازُن عجيب فيما العربة تلتفُّ حول زاوية الشارع وإحدى عَجلتيها في الهواء. كانت مُكشّرة عن أسنانها، وعيناها تقدحان شرراً، وشعرها الطويل يتطاير وراءها

كذيل النجم المُذنَّب. وكانت تجلد الحصان بالسوط بلا رحمة، وقد اتّسع منخراه واحمرّا وتجمّع الزبَد حواليهما. وراح الحصان يعدو بجنون نحو الباب الأماميّ، مُبتعِداً عن عمود الإنارة نحو سنتيمترين فقط، ثمّ شبَّ واقفاً على قائمتيه الخلفيَّتين. واصطدمت العربة بعمود الإنارة فتحطّمت وتطايرت قِطَعاً قِطَعاً. ولكنَّ الساحرة كانت قد قفزت قفزةً رائعة، فتجنّبت الاصطدام في الوقت المناسب، وهبطت على ظهر الحصان، حيث باعدَت رجليها واستَوت جالسةً عليه ومائلةً نحو الأمام، هامسةً في أُذنه كلاماً. ولا بدّ أنّه كان كلاماً لا يقصد تهدئته بل إثارة جنونه. فقد شبَّ على رجليه مرّةً ثانية في لحظةٍ واحدة، وصار صهيله كالصُراخ، وظهر كما لو كان كلّه حوافرَ وأسناناً وعينين وعُرفاً متموّجاً. وما كان ليصمد على ظهره إلّا الفارس الماهر!

وقبل أن يلتقط ديغوري أنفاسه، بدأت عدّة أشياء تحدث. فقد اندفعت بسرعة عربة أُخرى وراء الأولى، ومنها قفز رجلٌ سمين لابسٌ سترة طويلة وشرطيّ. ثمّ أقبلت عربة أُخرى فيها شرطيّان آخران. وبعدها جاء نحو عشرين شخصاً (معظمهم فتيانٌ سُعاة) يركبون درّاجات ويرنّون أجراسها ويُطلِقون هتافاتٍ وصفيراً. وآخِر الكلّ، جاء جمعٌ من الناس يمشون على الأقدام ركضاً، وقد احمرّت وجوههم جميعاً من الركض، لكن من الواضح أنهم كانوا يستمتعون بما كانوا يفعلونه. وعندئذٍ أُقفِلت نوافذ البيوت

كلّها في ذلك الشارع، وظهر عند مدخل كلّ بيت خادمةٌ أو خادم. فقد أرادوا أن يشاهدوا الفُرجة!

في تلك الأثناء بدأ رجل عجوز يُجاهد مرتعشاً للخروج من حُطام العربة الأولى. واندفع كثيرون ليُساعِدوه. ولكنْ سحبه أحدهم إلى جهة وغيرُه إلى جهة أُخرى، فربمّا لو خرج وحده كان أسرعَ له. وخمّن ديغوري أنّ يكون ذلك العجوز هو الخال أندرو، إنمّا لم يكن ممكناً أن يُرى وجهه، لأنّ قبّعته الطويلة كانت قد نزلت عليه وغطّت وجههُ.

واندفع ديغوري خارجاً لينضمّ إلى الجمع.

ثمّ صاح الرجل السمين، مشيراً بإصبعه إلى جاديس: «تلك هي المرأة، تلك هي المرأة. قُم بواجبك، يا شرطيّ. لقد أخذَت من دكّاني أشياء ثمنُها مئاتٌ وآلاف من الجنيهات. انظر عقد اللؤلؤ الطويل حول رقبتها. إنّه لي. ثمّ إنّها لطمتْني على عيني، فتسبّبت لي بكدمةٍ سوداء حولها!»



وقال واحد من الجميع: «صحيح أنّها فعلت ذلك، يا سيّد. وما أحسنها من كدمة سوداء حول العين تروقني رؤيتها! لا بدّ أنّها عملت عملاً عظيماً. أليست قويّةً جدًّا، يا سيّد؟»

وقال صبيٌّ يعمل عند لحّام: «عليك أن تضع على الكدمة، يا سيدي، شريحة نيئة من لحم البقر. فهذا أحسن علاج لها».

وعندئذٍ قال أهم رجال الشرطة الموجودين: «والآن، ما كل هذه الجلبة؟»

وبدأ الرجل السمين يقول: «أقول لك إنّها...» عندما صرخ أحدُهم:

«لا تدعْ العجوز في عربة الأجرة يُفلِت. فهو الذي جعلها تفعل ما فعلته».

إذ ذاك كان العجوز الأنيق – وهو طبعاً الخال أندرو –



قد نجح في الوقوف وبدأ يمسح رضوضه. فالتفت الشرطيُّ إليه وقال: «ما هذا كلُّه؟ ماذا فعلْت؟»

فصدر صوت الخال أندرو من داخل القُبَّعة: «هُمف، بُمف، شُمف!»

وقال الشرطيُّ بحزم: «كُفَّ عن هذا الآن. ستجد أنَّ هذا ليس أمراً مُضحكاً. انزع تلك القُبَّعة، هل فهمت؟»

وما كان أسهل القول وأصعب الفعل! فبعد أن جاهد الخال أندرو وقتاً لنزع القبّعة، حتّى أمسك بحافتها شرطيّان آخران ونزعاها نزعاً.

فقال الخال أندرو بصوت واهٍ: «شكراً، شكراً. يا حسرتي! لقد تزعزع كياني جدًّا. يا ليت أحداً يسقيني كأس نبيذ...»

وقال الشرطيُّ، وقد أخرج دفتراً كبيراً جدًّا وقلم رصاص صغيراً جدًّا: «اسمعني الآن من فضلك. أأنت المسؤول عن تلك الشابّة هُناك؟»

«انتبه!» قالتها أصواتٌ عديدة، فقفز الشرطيُّ خطوة إلى الوراء، في الوقت المناسب. إذ أنَّ الحصان صوَّب نحوه رفسةً كان يمكن أن تقتله. ثمَّ أدارت الساحرة الحصان، حتّى واجهت الجمع، وصارت قائمتاه الخلفيّتان على الرصيف. وكان بيد الساحرة سكّين برّاقة طويلة، وقد انشغلت بقطع رُبُط الحصان من حُطام العربة.

أمّا ديغوري، فقد كان طيلة ذلك الوقت يحاول أن يصل إلى وضع يمكّنه من لمس الساحرة. ولم يكُن ذلك

هيّناً قطّ، لأنّه في الجانب الأقرب إليه كان يوجَد ناسٌ كثيرون. وحتّى يدور ويصل إلى الجانب الآخر، كان عليه أن يمرّ بين حوافر الحصان وسياجات المساحة الفارغة المحيطة بالبيت، لأنّ بيت آل كترلي كان فيه دَور سفلي. ولو كنتَ تعرف شيئاً عن الأحصنة، وخصوصاً لو رأيت الحالة التي كان فيها الحصان تلك اللحظة، لأدركت أنّ القيام بذلك محفوف بالخطر. وكان ديغوري يعرف الكثير عن الأحصنة، لكنّه تشدّد واستعدّ أن يندفع إلى القيام بذلك حالما يرى لحظة مناسِبة.

عندئذٍ كان رجلٌ أحمر الوجه، على رأسه قُبّعة سوداء مستديرة، قد شقّ طريقه عنوةً إلى مقدّمة الجمع، وقال:

«مرحبا، يا شرطيّ. ذلك حصاني الذي هي راكبة عليه، وتلك عربتي التي جعلتها شظايا من خشب».

فقال الشرطيّ: «واحدة واحدة، من فضلك!»

وقال السائق: «ولكن لا وقت! أنا أعرف ذلك الحصان أحسن ممّا تعرفه. إنّه ليس حصاناً عاديّاً. فأبوه كان حصانَ ضابطٍ حربيّاً في فرقة الخيّالة. وإذا ظلّت هذه المرأة تضايقه، فسوف يقع قتلى. دعْني أصِل إليه».

فسُرّ الشرطيّ كثيراً بأن يكون له سببٌ كافٍ للوقوف بعيداً عن ذلك الحصان. وتقدّم السائق خطوةً، ثمّ تطلّع إلى جاديس، وقال بصوتٍ لا يخلو من اللطف:

«أنستي، اسمحي لي بالوصول إلى رأسه، وخلّي الباقي عليّ. ما أنتِ إلّا امرأةٌ رقيقة، ولا تريدين أن يُلاحِقكِ

جميع هؤلاء الرجال القُساة. أليس كذلك؟ أوَلا تريدين أن تذهبي إلى بيتك وتشربي فنجان شاي ساخناً وتستلقي لتستريحي؟ عندئذٍ لا بدّ أن تتحسّن حالكِ كثيراً». وفي الوقت نفسه مدّ يده نحو رأس الحصان قائلاً: «مهلاً، يا أبا فريز، مهلاً يا صاحبي القديم، اهدأ الآن!»

ثمّ تكلّمت الساحرة أوّل مرّة، فسُمع صوتُها بارداً واضحاً ومجلجِلاً يعلو فوق كلّ ضجيج آخر: «يا حقير! ارفع يدك عن فرسنا الحربيّ الملوكيّ. نحنُ الإمبراطورة جاديس!»

الفصل الثامن

المعركة عند عمود الإنارة

علا صوت من وسط الجمع يقول: «هُه! إمبراطورة، أهذا صحيح؟ سنرى إن كان هذا صحيحاً!»

ثمّ قال صوتٌ آخر: «لِتَعِش إمبراطورة حيّنا، كولْني هاتش!» وردّد ذلك وراءه كثيرون. فتورّد خدّا الساحرة قليلاً، وردّت التحيّة بانحناءة بسيطة. ولكنّ الهتافات تلاشت لتحلّ محلّها موجةٌ هادرة من الضحك، فعرفت أنّهم يستهزئون بها. فتبدّلت ملامح وجهها، ونقلت السكّين إلى يدها اليُسرى. ثمّ عملت، دون إنذار، أمراً روّع مَن رآه. فبخفّة وسرعة وسهولة، وكأنّها تقوم بأبسط شيء في الدنيا، مدّت ذراعها اليُمنى ونزعت أحد القضبان العرضية من عمود الإنارة الحديديّة. فمع أنّها فقدت قواها السحريّة في عالمنا هذا، لكنّها لم تفقد قوّتها الطبيعيّة، وكانت تقدر أن تكسر قضيب حديد كأنّه قصبة سُكّر. ثمّ رمت سلاحها الجديد في الهواء، والتقطته من جديد، ولوّحت به، وأمرت الحصان حتّى ينطلق.

عندئذٍ فكّر ديغوري: «الآن فرصتي المناسبة!» فاندفع بين الحصان والسياج وبدأ يتقدّم. ولو هدأ الحصان لحظة، لأمكنه أن يمسك بقدم الساحرة. لكنّه وهو مُندفع سمع صوت تحطُّم مخيفاً وخبطة قويّة. فقد أسقطت الساحرة قضيب الحديد على خوذة رئيس رجال الشرطة، ووقع الرجل أرضاً كأنّه دُمية ضُرِبت بطابة!

ثمّ صاح صوتٌ قرب ديغوري: «بسرعة، يا ديغوري. يجب إنهاء هذا!» كان ذلك صوت بولي، وقد اندفعت إلى الخارج لحظة سمحوا لها بمغادرة السرير.

وقال ديغوري: «أنتِ صديقة رائعة! ابقَي بلزقي تماماً. عليك أن تستخدمي الخاتم... الأصفر، لا تنسَي. ولا تلبسيه قبل أن أصرخ».

ثمّ سُمِعت خبطة أُخرى، وسقط شرطيٌّ آخر. وانطلق من بين المحتشدين صراخ ساخط: «أنزِلوها! هاتوا بعض حجارة الرصيف. استدعوا الجيش!» ولكنّ معظم الناس كانوا يسرعون مبتعدين بقدر إمكانهم. غير أنّ سائق العربة، والواضح أنّه أشجع الحاضرين وألطفهم، ظلّ بقرب الحصان، مُراوِغاً ومُناوِراً ليتجنّب ضربة القضيب، ومحاولاً في الوقت ذاته أن يمسك برأس أبي فريز.

وأخذ الجمع يضجّون ويعجّون من جديد. ثمّ صفر حجر فوق رأس ديغوري. وعلا صوت الساحرة مُجلجِلاً كالجرس، تبدو فيه هذه المرّة نبرةٌ تغلب عليها السعادة:

«يا حُثالة الناس! ستدفعون ثمناً باهظاً مقابل هذا حين أغلب عالمكم. لن يبقى حجر واحد من مدينتكم. سأجعلها مثل شارْن، ومثل فيلنده، ومثل سورلويز، ومثل براماندين*!»

أخيراً أمسك ديغوري بكاحلها. فرفسته إلى الوراء بعَقِبها وأصابته في فمه. ومن وجعه أفلت قبضته. فقد انجرحت شفته وامتلأ فمه دماً. ومن مكان قريب جدًّا انطلق صوت الخال أندرو بما يُشبِه صرخة مرتجفة: «سيِّدتي - سيِّدتي الشابَّة - بحقِّ السماء - هدِّئي من روعك!» وأمسك ديغوري بعَقِبها مرَّة ثانية، فرفسته رفسة أُخرى وأفلتت منه. وسقط مزيد من الرجال أرضاً بقضيب الحديد. ثمَّ مدَّ ديغوري يده ثالثةً، وأمسك بعَقِبها متشبِّثاً بقدمها بشدَّة بالغة، وصاح مخاطباً پولي «هيّا!» إذ ذاك تلاشت الوجوه الغاضبة الخائفة، وخرست الأصوات الساخطة المرتعبة، ما عدا صوت الخال أندرو. فإنَّه ظلَّ بلزق ديغوري في الظلام يزعق: «أُوه، أُوه، أهذا جنون؟ أهذا هذيان؟ أهذه النهاية؟ لا أقدر أن أحتمل. ليس هذا إنصافاً. ما قصدتُ قطُّ أن أكون ساحراً. هذا كلُّه سوء فهم. إنَّها غلطة عرَّابتي. أنا أعترض فعلاً. أيكون لي هذا وصحَّتي رديئة جدًّا؟ أَلستُ أنا ابن عائلة عريقة جدًّا من منطقة دورستشاير!»

وفكَّر ديغوري: «يا ويلاه! لم نكُن نريد أن نجلبه معنا.

* كل هذه مدنٌ كانت في عالم جاديس، وقد دمَّرتْها جميعاً.

يا للمفاجأة!» ثمَّ قال: «يا لها من نُزهة! أأنتِ هنا يا پولي؟»

«نعم، أنا هنا. لا تدفعْني!»

فبدأ يقول: «لستُ...» ولكن قبل أن يتمكَّن من إضافة شيء، طلع رأساهما إلى نور الغابة الأخضر الدافىء. وإذ خرجا من البركة هتفت پولي:

«انظُر! لقد جلبنا الحصان الهَرِم معنا أيضاً. وكذلك السيِّد كترلي، وسائق العربة. يا لها من لَخْبطة!»

وما إن رأت الساحرة أنَّها عادت إلى الغابة من جديد، حتَّى اصفرَّ وجهُها، وانحنت حتَّى مسَّ جبينُها عُرف الحصان. وكان في وسعك أن تدرك أنَّها كانت تشعر بإعياء شديد مميت. أمَّا الخال أندرو فكان يرتجف. غير أنَّ الحصان، أبا فريز، هزَّ رأسه وصهل صهيلاً بهيجاً، وبدا أنَّه أحسن حالاً. فقد هدأ أوَّل مرَّة منذ رآه ديغوري. وبعدما كانت أُذناه مُرتخيتين على جانبي رأسه إلى الوراء، عادتا إلى وضعهما الطبيعيّ، وخمدت نار عينيه.

وقال السائق مُربِّتاً رقبة أبي فريز: «لا بأس، يا شيخ! هذا أفضل. هوِّن عليك».

ثمَّ قام أبو فريز بأكثر الأشياء طبيعيَّة في الدنيا. فإذ كان شديد العطش (ولا عجب)، مشى على مهل إلى أقرب بركة وخاضها ليشرب. وكان ديغوري ما زال ماسكاً بعَقِب الساحرة، وپولي ماسكة بيد ديغوري. وكانت إحدى يَدَي السائق على أبي فريز، فأمسك الخال أندرو بيده الأُخرى وهو ما زال يرتجف كثيراً.

قالت پولي ناظرةً إلى ديغوري: «بسرعة! الأخضرين!» فلم يكمل الحصان شربته، بل وجد الجميع أنفسهم يغوصون في الظلام. وصهل أبو فريز، ودمدم الخال أندور، وقال ديغوري: «كانت هذه ضربة حظّ!»

ثمّ ساد صمت قصير، بعده قالت پولي: «ألا ينبغي أن نكون الآن هناك تقريباً؟»

فقال ديغوري: «يبدو فعلاً أنّنا في مكانٍ ما . فأنا على الأقل واقف على شيء صُلب».

وقالت پولي: «عجباً، وأنا أيضاً، بعدما فكّرتُ بالأمر. ولكنْ لماذا الظلام حالكٌ بهذا القدر ؟ تُرى، هل نزلنا في البركة غير الصحيحة؟»

فقال ديغوري: «ربّما هذه شارْن، وقد رجعنا إليها في نصف الليل».

وعلا صوت الساحرة: « هذه ليست شارن. هذا عالمٌ فارغ. هذا هو اللاشيء».

وبالحقيقة كان ذلك يُشبه اللاشيء بصورة غير عاديّة. فلم تكن في السماء نجوم. وكانت الظلمة شديدة جدًّا حتّى لم يقدروا أن يروا بعضهم بعضاً، وما كان من فرقٍ بين إغماض عينيك أو فتحهما. وكان تحت أقدامهم شيءٌ مسطّح بارد، ربّما كان أرضاً، ولكنْ بالتأكيد لم يكن عشبٌ ولا شجر. كما كان الهواء بارداً وجافاً، ولم تكُن هناك ريحٌ.

وقالت الساحرة بصوتٍ فيه هدوء مروّع: «لقد جاء وقت هلاكي!» فقال الخال أندرو: «لا، لا تقولي هذا.

رجاءً، سيّدتي الشابّة العزيزة، لا تقولي شيئاً كهذا. لا يمكن أن يكون الأمر سيّئاً إلى هذا الحدّ. آه - يا سائق - ياصاحبي - أليس معك قنّينة؟ نُقطة نبيذ هي ما أُريد حقًّا».

وعلا صوت السائق حازماً جازماً: «كفى! ظلّوا كلُّكم هادئين. هذا ما أقوله لكم. لم تتكسر عظمة من أحدنا؟ طيّب! هذا شيء يجب أن نكون شاكرين عليه حالاً، وهو أكثر ممّا يمكن أن يتوقّعه أحد بعد سقوطنا هذه المسافة كلّها. والآن، فإذا كنّا قد وقعنا في بعض الحُفَر - ربّما في محطةٍ لقطارات تحت الأرض - فلا بدّ أن يأتي أحد ويخلّصنا سريعاً! وإذا كنّا قد متنا - ولا أنكر أن يكون هذا ممكناً - فعليكم أن تتذكّروا أنّ مصائب أسوأ تحدث في البحر، والإنسان سوف يموت ذات يوم. وليس هناك ما يخاف منه الإنسان إذا كان قد عاش حياة شريفة. وإن سألتموني، أعتقد أنّ أفضل شيء نعمله لتمضية الوقت هو أن نرتّل ترتيلة».

وهذا هو ما فعله. فقد انطلق حالاً يُرتّل تسبيحة شكر على الحصاد، تدور حول «جمع الغِلال بسلامةٍ وأمان». ولم تكُن الترتيلة مناسبة جدًّا لمكانٍ بدا أنّه لم يطلع فيه أيُّ نبات من بداية الزمان. إلّا أنّها كانت الترتيلة التي كان يتذكّرها جيّداً. وكان صوتُه عذباً، فانضمّ الولدان إليه، ودبّت الحماسة والسرور. لكنّ الخال أندرو والساحرة لم يُرتّلا معهم.

وقبل انتهاء الترتيلة، أحسَّ ديغوري أنَّ أحداً يمسك به من كوعه. ومن رائحة كحول وسجائر يعرفها، وملمس ثيابٍ ناعمة، تأكَّد له أنَّ ذلك هو الخال أندرو، وكان يسحبه بانتباهٍ وحَذَرٍ بعيداً عن الباقين. فلمّا ابتعدا قليلاً، اقترب العجوز بفمه من أُذن ديغوري كثيراً حتَّى دغدغه، وهمس:

«والآن، يا بُنيَّ. ضع خاتمك في إصبعك، ولنذهب من هنا!» لكنَّ سمع الساحرة كان قوياً. فقفزت عن الحصان قائلةً: «يا غبيّ! هل نسيت أنّي أقدر أن أسمع أفكار الناس؟ أفلِت الولد. إذا حاولت أن تخدعني، فسأنتقم منك انتقاماً لم يسمع أحد بمثله في كلّ العوالم من البداية».

وأضاف ديغوري: «وإذا اعتقدتَ أنّي شخصٌ حقير وسافل بحيث أذهب وأترك پولي – والسائق والحصان – في هذا المكان، فأنت مُخطئ كثيراً».

فقال الخال أندرو: «أنت صبيٌّ صغير، تافه ودنيء وحقير جدًّا».

وقال السائق: «صه!» فتسمَّع الجميع.

كان شيءٌ ما يحدث في العتمة أخيراً. فقد بدأ صوتٌ يُغنّي، وكان بعيداً جدًّا حتّى إنَّ ديغوري وجد صعوبةً في أن يحزر الجهة التي يأتي منها. فأحياناً بدا آتياً من كلّ جهة. وأحياناً كاد ديغوري يظنُّ أنّه آتٍ من الأرض تحتهم. وكانت نبراته المنخفضة عميقة كفايةً حتّى يُحسَب صوت

الأرض نفسها. إنّما لم تُسمع كلمات، وبالكادّ سُمِع نغم. ولكنَّ ذلك الصوت كان أجمل صوت سمعه ديغوري على الإطلاق، وما سمع مثله قطّ. لقد كان أعذبَ من أن يُحتمَل سماعه. وبدا أنَّ الحصان أُعجب به أيضاً، لأنّه أطلق صهيلاً كالذي يُطلقه حصانٌ قضى سنوات يجرُّ عربة ثمَّ وجد نفسه من جديد في الحقول القديمة التي سرح فيها ومرح لمّا كان مهراً، حيث رأى أحداً تذكَّره وكان يروقه أن يعبر الحقول ليُطعمه قطعة سُكَّر.

ثمَّ هتف سائق العربة: «يا للروعة! أليس هذا جميلاً؟»

وعندئذٍ حدث أمران عجيبان في اللحظة ذاتها. أحدُ هذين الأمر هو أنَّ أصواتاً أخرى انضمَّت إلى ذلك الصوت، وكانت أكثر من أن تُعدَّ. وكانت متناغمة معه، لكنَّها أعلى بكثير مقاماً وطبقة: كانت أصواتاً أثيريَّة مُنعِشة مُطرِبة جدًّا. والأمر العجيب الثاني هو أنَّ الظلمة المخيِّمة فوق الرؤوس أخذت فجأة تتلألأ بالنجوم. فلم تطلع النجوم نجماً بعد نجم على مهل، كما يجري في مساءٍ صيفيّ؟ بل بعد مرور لحظات الظلام الموحشة جاءت لحظة فيها قفزت إلى السماء آلاف وآلاف من نقاط الضوء: نجوم متفرِّقة، عناقيد نجوم، كواكب كثيرة، أكثر تألُّقاً وأكبر حجماً من مثيلاتها في عالمنا. ولَمْ يكُن في الجوّ غيوم. وقد طلعت النجوم الجديدة والأصوات الجديدة في وقتٍ واحد تماماً. ولو رأيتَ ذلك وسمعتَه، مثلما رأى ديغوري وسمع، لتأكَّد

لك حتماً أنَّ النجوم هي التي كانت تُغنّي، وأن الصوت الأوَّل، ذلك الصوت العميق، هو ما جعلها تطلع وتُغنّي.

وقال السائق: «مجداً! لو عرفتُ بوجود أشياء كهذه، لكنتُ إنساناً أصلحَ كلَّ حياتي».

وفي هذا الوقت، كان الصوت الطالع من الأرض أقوى وأكثر انتصاراً، فيما بدأت الأصوات التي في السماء تضعف، بعدما رافقته في الغناء عالياً بعضَ الوقت. وآنذاك بدأ يحدث شيءٌ آخر.

ففي البعيد البعيد، عند أسفل الأُفق، بدأ الجو يصير رماديًا داكناً. وأخذت تهبُّ ريحٌ خفيفة منعشة جداً. وراح الفضاء، في ذلك المكان بالذات، يصير شاحباً، ببطء وثبات. وكان يمكنك أن ترى أشكال تلال مرتفعة على صفحة الفضاء. وظلَّ الصوت يُغنّي غناءً متواصلاً.

وسرعان ما انتشر من النور ما يكفي ليَرَوا بعضَهم وجوه بعض. وانفتحت أفواه السائق والولدين، واتَّسعت أعيُنهم وبرقت، فيما هم يتذوَّقون الصوت، وقد خُيِّل إليهم أنّه ذكَّرهم بشيء ما. كذلك انفتح فم الخال أندرو أيضاً، ولكنْ ليس من الابتهاج. فقد بدا وكأنَّ ذقنه سقطت منفصلةً عن باقي وجهه. وتيبَّست كتفاه، واصطكَّت ركبتاه. فالصوت لم يعجبه. ولو كان يقدر أن يهربَ منه بالزحف إلى جُحر فأر، لفعل ذلك. ولكنْ بدا على الساحرة، بطريقة ما، كأنّها فهمت الموسيقى أفضل ممّا فهمها أيُّ واحدٍ منهم. وقد أغلقت فمها، وضمَّت شفتيها،

وأطبقت قبضتيها. فمنذ بدأت تلك الأُغنية، أحسَّت أنَّ هذا العالم بكامله كان مملوءاً بسحر مختلف عن سحرها وأقوى منه، فكرهته. وكانت مستعدةً أن تُحطِّم العالم كلَّه، أو العوالم كلَّها، شرَّ تحطيم، لو كان من شأن ذلك أن يُوقِف الغناء. أمّا الحصان فوقف مادّاً أُذنيه إلى الأمام وهو يرتجف. وكان من حين إلى حين يصهل ويخبط الأرض بأقدامه. ولم يعُد يبدو مثل حصان عربة هَرِم مُتعَب، حتّى بات يمكنك الآن أن تصدِّق أن أباه جوادُ حربٍ خاض معاركَ كُبرى.



ثمَّ تغيَّرت السماء الشرقية من الأبيض إلى القرنفليّ، ومن القرنفليّ إلى الذهبيّ. وأخذ الصوت يعلو أكثر فأكثر، حتّى أخذ الهواء كلُّه يُردِّد أصداءه. ولمّا بلغ أقوى درجاته وأمجدها، طلعت الشمس.

لم يسبق لديغوري أن رأى مثل تلك الشمس. وبينما ظهرت الشمس فوق خرائب شارْن أكبر عمراً من

شمسنا، ظهرت هذه أصغر سنًّا منها. وكان يمكنك أن تتخيّلها ضاحكةً من الفرح وهي تطلع. وإذ ترامت أشعّتها عبر الأراضي، استطاع المسافرون أن يروا أوّل مرّة طبيعة المكان الذي كانوا فيه. فقد كان وادياً يجري فيه نهرٌ عريضٌ سريع مُتعرّج، يتدفّق شرقاً نحو الشمس، إلى جنوبه جبالٌ عالية، وإلى الشمال منه تلالٌ أقلّ ارتفاعاً. لكنّه كان وادياً ليس فيه إلّا تراب وصخور وماء؛ فلا شجرة ولا شُجَيرة ولا عُشبة تُرى. أمّا التُّربة فكانت متعدّدة الألوان، وهي ألوان جديدة ومشرقة وجليّة، تجعلك تشعر بالحماسة، حتّى إذا رأيت المُغنّي نفسه، تنسى كلّ ما عداه.

كان المُغنّي أسداً ضخماً، كثيف الشعر، زاهي اللون، واقفاً مقابل الشمس الطالعة، وقد فتح فمه على وسعه بالغناء، وكان يبعد عنهم أقلّ من ثلاث مئة متر.

وقالت الساحرة: «هذا عالم رهيب. يجب أن نفرّ منه حالاً. حضّر السحر».

فقال الخال أندرو: «أنا أوافقك في الرأي تماماً، يا سيّدتي. هو مكان بغيض. غير متمدّن أبداً! يا ليتني كنت شاباً أصغر سناً وعندي بندقيّة...»

وقال السائق: «مهلاً! أنت لا تعتقد أنّك تقدر أن تطلق النار عليه، أتعتقد ذلك؟»

وسألت پولي: «ومَن يُطلِق عليه النار؟»

ثمّ قالت جاديس: «حضّر السحر، يا عجوزاً غبيّاً».

فقال الخال أندرو بمكر: «حتماً سيّدتي. يجب أن

يلمسني الولدان كلاهما. البس خاتم العودة حالاً، يا ديغوري». وكان يريد الفرار من دون الساحرة.

وصاحت جاديس: «أوه! هي مسألة خواتم إذاً». وكان ممكناً أن تضع يدها في جيب ديغوري بلمح البصر، لكنّ ديغوري أمسك بيد پولي وصرخ:

«حذارِ! إذا اقترب أيٌّ منكما سنتيمتراً واحداً، فسنختفي نحنُ الاثنين وتبقيان أنتما هنا إلى الأبد. نعم، في جيبي خاتمٌ يُرجِعنا أنا وپولي إلى ديارنا. انظرا! هذه يدي حاضرة. ابقيا بعيدَين عنّا. أنا آسف عليك (مخاطباً السائق) وعلى الحصان، ولكنْ لا حيلة لي. أمّا أنتما (ملتفتاً إلى الخال أندرو والملكة) فكلاكما ساحران، ولا بدّ أن تحلو لكما العيشة معاً».

لكنّ السائق قال: «اسكتوا كلّكم! أريد أن أسمع الموسيقى».

ذلك أنّ الأغنية كانت قد تغيّرت.

الفصل التاسع

تأسيس نازنيا

كان الأسد يمشي ذهاباً وإياباً في تلك الأرض الفارغة وهو يُنشِد أُغنيته الجديدة. وكانت أعذب وأرقّ وأجمل إيقاعاً من تلك الأُغنية التي بها استدعى النجوم والشمس، إذ فاضت موسيقى عذبةً متماوجة. وبينما هو يمشي ويُغنّي، ملأ العشبُ الأخضر الوادي. وقد انتشر العشب من حول الأسد مثل بِركة أو بُحيرة، وأخذ يرتفع على سفوح التلال كأمواج. وبعد دقائق قليلة أخذ يصعد على مُنحدَرات الجبال البعيدة، جاعلاً ذلك العالم الجديد أكثر نعومة وليونة. وصار يمكن سماع الريح الخفيفة وهي تُموّج العشب. وبعد قليل طلعت أشياء أُخرى غير العشب. فالهِضاب العُليا غطّاها نبات الخلنج* الداكن. وظهرت في الوادي مساحات من حشائش أقسى وأغزر، لم يعرف ديغوري ما هي حتّى بدأت واحدة منها تطلع على مقربة منه. كانت شيئاً صغيراً كثير الشوك يخرج منها

* الخلنج: نبات صغير الأوراق، دائم الخضرة، أزهاره وردية اللون جرسية الشكل.

عشرات الأذرع التي تغطّت بالاخضرار، وراح يكبر بمعدّل سنتيمتر كلّ ثانية تقريباً. ثمّ صار حواليه عشرات من هذه الأشياء الخضراء. وحين صارت بطوله، عرف ما هي، فهتف: «أشجار!»

أمّا المزعج في ذلك، كما قالت پولي بعد قليل، فكان عدم استمرار الهدوء للتمتّع بهذا المنظر الرائع. فما إن قال ديغوري «أشجار!» حتى اضطُرّ إلى القفز لأنّ الخال أندور كان قد تسلّل إلى جانبه وحاول أن يضع يده في جيبه. ولو نجح، ما كان ليستفيد كثيراً، لأنّه كان يمدّ يده إلى جيب ديغوري الأيمن، اعتقاداً منه أن الخاتم الأخضر كان خاتم «العودة إلى الديار». ولكنّ ديغوري أيضاً لم يكُن يريد أن يخسر.

وصرخت الساحرة: «قف! إلى الوراء! لا، إلى الوراء أكثر. إذا اقترب أحد إلى الولدين أقلّ من عشر خطوات، فسأكسر رأسه». وكانت رافعة بيدها قضيب الحديد الذي نزعته من عمود الإنارة، ومُتأهّبة للضرب به. ولم يكُن أحد يشكّ بأنّ ضربتها لا بدّ أن تُصيب الهدف.

ثمّ أضافت: «هكذا إذاً! تنوي أن تتسلّل راجعاً إلى عالمك مع الولد، تاركاً إيّاي هنا».

وأخيراً تغلّب الخال أندرو على مخاوفه، فقال: «نعم يا سيّدتي، هذا ما أنويه. ولا شكّ أبداً في هذا. يجب أن أنال حقوقي كاملةً. لقد عُوملتُ معاملةً معيبة وكريهة جدّاً. إنّي بذلت جهدي كلّه لأُعاملكِ بكلّ تهذيب وأدب.

فماذا كانت مكافأتي؟ لقد سلبتِ نعم يجب أن أكرّر هذه الكلمة – سلبتِ صائغاً محترماً جدًّا. وقد ألححتِ على أن أضيّفك غداءً غالياً جدًّا، بل باذخاً، مع أنّي اضطُررت إلى رهن ساعتي وسلسلتي لأفعل ذلك (ودعيني أقل لك، سيّدتي، إنّ أحداً من عائلتنا ما تعوّد أن يتردّد على مكاتب الاسترهان، ما عدا إدوارد ابن عمّي، وهو كان من فُرسان الفلاّحين). وفي أثناء تلك الوجبة الثقيلة على المعدة – ما زلتُ أشعر أسوأ شعور من جرّائها حتى الآن – لفت تصرُّفك وحديثك انتباه جميع الحاضرين بشكل غير مستحبّ. فأنا أشعر بأنّي تلقّيت الإهانة علناً. ولن أتمكّن بعدُ من رفع وجهي في ذلك المطعم. ثمّ اعتديتِ على الشرطة. وسرقتِ ...»

عندئذٍ قال سائق العربة: «أسكت، يا سيد، أسكت! لننظر ونسمعْ ما أمامَنا الآن، ولا نتكلّم!»

وكان من المؤكّد أنه يوجد كثيرٌ للمشاهدة والاستماع. فالشجرة التي راقبها ديغوري صارت الآن شجرة زانٍ ضخمة تتمايل أغصانها فوق رأسه. وصاروا واقفين على عشب أخضر طريّ مرصّع بالأقحوان والحوذان. وفي مكان غير بعيد، على ضفّة النهر، كان شجر الصفصاف يطلع. أمّا في الجانب الآخر، فقد طوّقتهم أجمات من الشُجيرات المُزهِرة، مِن كِشمِش وليلك وورد بريّ ورُودودَنْدرون. وأخذ الحصان يرعى من العشب الجديد قضمات طيّبة ملء فمه.

آنذاك كان الأسد مستمراً في غنائه وفي تجواله الفخم ذهاباً وإياباً، إلى الوراء وإلى الأمام. وما أخافهم فعلاً هو أنّه كلّ مرّة كان يقترب منهم أكثر قليلاً. وأخذت پولي تنجذب إلى الأغنية أكثر فأكثر، لأنّها أدركت أنّها بدأت ترى العلاقة بين الموسيقى والأشياء الجارية. فلمّا طلع صفٌّ من الشربين الداكن على سلسلةٍ جبلية صغيرة يبعد أقلّ من مئة متر، أحسّت أنّ تلك الأشجار كانت مرتبطة بسلسلة من الأنغام العميقة المديدة التي كان الأسدُ قد تغنّى بها قبل ثانية. ولمّا اندفع في سلسلة سريعة من أنغام ألطف، لم يفاجئها أن ترى زهر الربيع يطلع حالاً في كلّ جهة. وهكذا، ببهجةٍ لا تكاد توصف، تأكّد لها تماماً أنّ كلّ الأشياء كانت تخرج (كما قالت) «من رأس



الأسد». فلو أصغيتَ إلى أُغنيته، لسمعتَ الأشياء التي كان يعملها؛ ولو نظرتَ حواليك، لرأيتها. وقد كان ذلك مُبهجاً جدًّا حتّى لم يبقَ عندها وقت للخوف. ولكنّ ديغوري والسائق لم يتمكّنا من منع الشعور ببعض التوتّر، إذ كانت كلّ جولة يقوم بها الأسد تُقرّبه إليهم أكثر. أمّا الخال أندرو، فكانت أسنانه تصطكّ، ولكنّ ركبتيه كانتا ترتجفان بحيث لا يقدر أن يهرب.

وفجأةً تقدّمت الساحرة بجرأة نحو الأسد. وكان مُقبلاً بخطوات بطيئة وثابتة، وهو يُغنّي بشكلٍ مستمر، وقد وصل إلى بُعد عشرة أمتار عنها. فرفعت ذراعها وقذفت بقضيب الحديد على رأسه.

لم يكُن ممكناً لأحد، وعلى الأقلّ جاديس، ألّا يُصيب الهدف من تلك المسافة. وقد أصاب القضيب الأسد بين عينيه تماماً، ثمّ هوى وسقط على العشب بخبطة قويّة. ولكنّ الأسد ظلّ مقبلاً. ولم تصِر مشيته أبطأ ولا أسرع من قبل. ولم يكن من الممكن أن تعرف إن كان الأسد قد عرف أنه أُصيبَ أم لا. ومع أنّ بواطن أقدامه الناعمة لم تُصدِر ضجّة، كان يمكنك أن تحسّ الأرض تهتزّ تحت ثقلها.

حينئذٍ زعقت الساحرة وركضت هاربةً، وفي لحظات قليلة توارت عن الأنظار وراء الأشجار. والتفت الخال أندرو ليعمل مثلها، فتعثّر بجذر شجرة، ووقع منطرحاً على وجهه في ساقية صغيرة تجري نزولاً لتصب في النهر.

أمّا الولدان فلم يقدرا أن يتحرّكا. حتّى إنّهما لم يكونا متأكّدين تماماً أنّهما يريدان أن يتحرّكا. فالأسد لم يلتفت إليهما. وكان فمه الأحمر الكبير مفتوحاً، لكنّه مفتوحٌ للغناء لا للزمجرة. وقد مرّ بلزقهما حتّى كان يمكنهما أن يلمسا عُرفه. وكانا خائفين كثيراً أن يلتفت وينظر إليهما، إلّا أنّهما تمنّيا بصورة غريبة أن يفعل ذلك. ولكنْ على الرغم من انتباهه إليهما جيّداً، فربّما كان أيضاً غيرَ ممكن أن يراهما ويشمّهما. حتّى إذا جاوزهما وابتعد خطوات قليلة، التفت ثمّ جاوزهما ثانيةً، وتابع مسيرته نحو الشرق.

ثمّ قام الخال أندرو عن الأرض وهو يسعل والرذاذ يتطاير من فمه. وقال:

«الآن، يا ديغوري، تخلّصنا من تلك المرأة، وهذا الأسد المتوحّش ذهب. فأعطني يدك، والبسْ خاتمك حالاً».

فابتعد ديغوري عنه وقال: «ابقَ بعيداً عني. ظلّي بعيدة عنه، يا پولي! تعالي إلى جانبي هنا. والآن أُحذّرك، يا خالي أندرو: لا تقترب منّا خطوةً واحدة. وإلا فإننا سنختفي حالاً!»

فقال الخال أندرو: «افعل ما قلتُه لكَ الآن، يا سيّد! أنت صبيّ صغير غير مطيع أبداً وسيّىء السلوك جدًّا».

وقال ديغوري: «وما شأنك! نريد أن نبقى هنا ونشاهد ما يجري. كنت أظنّ أنّك ترغب في معرفة أحوال العوالم الأخرى. ألا يعجبك أنّك هنا الآن؟»

فصرخ الخال أندرو: «يعجبني؟ فقط انظر في أيَّة حالة أنا. وقد كانت هذه أحسن سترة عندي، وهذه أحسن صُدرة لديَّ أيضاً!» وكان منظره الآن رهيباً: لأنَّه طبعاً كلَّما كان لباسك في البداية أنيقاً، تبدو هيئتك أسوأ بعد زحفك خارج عربة أُجرة محطَّمة ووقوعك في ساقية موحلة.

ثمَّ أضاف: «لستُ أقول إنَّ هذا المكان غير مُشوِّق. فلو كنتُ رجلاً أصغر سنًّا الآن ... لربَّما تمكَّنتُ أن أجلب إلى هنا أوَّلاً صديقاً من الشبَّان الأقوياء، واحداً من أولئك الصيَّادين الذين يقومون برحلات صيد كبيرة. وربَّما كان ممكناً تحويل هذه الأرض الى شيء نافع. فالطقس جميل ومنعش. ما أحسستُ يوماً مثل هذا الهواء. أظنُّ أنَّه كان ينفعني لو كانت الظروف مناسِبة أكثر. يا ليتنا كنَّا نحمل بندقيَّة!»

فقال السائق: «ما لنا وللبُندقيَّات؟ أظنُّ أنَّني سأذهب لأرى هل أقدر أن أفرك ظهر أبي فريز. فهذا الحصان حسَّاس وعاقل أكثر من بعض البشر الذين يمكنني أن أذكرهم». ثمَّ رجع إلى حيث كان أبو فريز، وبدأ يصفر له ويُهَسهِس كعادة سائس الخيل.

وسأل ديغوري: «أما زلتَ تعتقد أنَّ ذلك الأسد يمكن أن يُقتل ببندقيَّة؟ إنَّ قضيب الحديد لم يؤثِّر فيه!»

فقال الخال أندرو: «مع كلِّ غلطاتها، فهي امرأة جريئة، يا بُنيّ. كان من الشجاعة أن تفعل ما فعلته». ثمَّ فرك يديه

وطقطق أصابعه، وكأنَّه من جديد نسي كم كانت الساحرة تخيفه لمَّا كانت هناك فعلاً.

وقالت بولي: «كان ما فعلَتْهُ أمراً شرِّيراً. فأيَّ أذى أنزل الأسد بها؟»

ثمَّ قال ديغوري: «انظروا! ما هذا؟» وكان قد اندفع إلى الأمام ليتفحَّص شيئاً رآه على بعد أمتار قليلة. ونادى: «آه، يا بولي، تعالَي انظري!»

وجاء الخال أندرو معها، لا لأنَّه أراد أن ينظر، بل لأنَّه أراد أن يظلَّ بلزق الولدين ـ عسى أن تُتاح له فرصة لسرقة خواتمهما. ولكن لمَّا رأى ما كان ديغوري ينظره، فحتَّى هو اهتمَّ به. فقد كان ذلك نموذجاً صغيراً كاملاً لعمود إنارة لا يتجاوز طوله متراً واحداً، ولكنَّه يزيد ارتفاعاً وتُخناً بالتناسُب، وهم ينظرونه؛ بل كان بالحقيقة يطلع كما طلعت الأشجار، ويكبُر كما كبُرت.

وقال ديغوري: «إنَّه حيٌّ أيضاً ـ أعني أنَّه مُنوَّر». وكان كذلك فعلاً، مع أنَّ ضوء الشمس طبعاً جعلت لهب المصباح لا يكاد يُرى إلَّا إذا وقع ظلُّك عليه.

وتمتم الخال أندرو: «رائع، رائع جدًّا. حتَّى أنا لم أحلم قطُّ بسحر كهذا. نحن في عالم كلُّ شيء فيه، حتَّى عمود الإنارة، يحيا وينمو. تُرى، أيَّة بذرة تُطلع عمود إنارة؟»

فقال ديغوري: «ألا تفهم؟ في هذا المكان سقط قضيب الحديد، القضيب الذي نزعته من عمود الإنارة في بلادنا. فقد غار في الأرض، وهو الآن يطلع عمود نور شابًّا». (لكنَّه

لم يكن شاباً تماماً الآن، إذ كان بطول ديغوري حين كان يقول هذا الكلام.)

وقال الخال أندرو، فاركاً يديه بطريقة أقوى من ذي قبل: «هكذا إذاً! هائل، هائل! هَه، هُه! كانوا يضحكون على سحري. وأختي تلك الغبيّة تظنّ أنّني مجنون. تُرى، ماذا سيقولون الآن؟ لقد اكتشفتُ عالماً كلُّ ما فيه يتفجّر حياةً ونموًّا. ويحدّثونك عن كولمبس! ولكنّ ما أميركا بالنسبة إلى هذه البلاد؟ إنّ الإمكانات التجاريّة فيها غير محدودة. لِنجلبْ قطعاً قليلة من خردة الحديد إلى هنا، وندفنْها، فيطلع منها قطارات وسُفن عاديّة وحربيّة وأيُّ شيءٍ نريده. لن تُكلّفني شيئاً، ويمكن أن أبيعها في بريطانيا بأسعار عالية، فأصير مليونيراً. ثمّ المُناخ! أنا أشعر بأنّني أصغر بسنوات. فيمكن أن أدير هذا المكان كمُنتجع صحّيّ، والمصحُّ الجيّد هنا يدرّ عشرين ألفاً في السنة. وطبعاً، ينبغي أن أُطلع بعض الأشخاص على السرّ. إنّما أوّل شيء هو أن نطلق النار على ذلك الوحش».

فقالت بولي: «أنت مثل الساحرة تماماً. فكلُّ ما تفكّر فيه هو قتل الأحياء».

وتابع الخال أندرو يقول، في حلمه السعيد: «وفي ما يتعلّق بي، لا يُعرف كم يطول عمري إن سكنتُ هنا. وهذا أمرٌ يجدر أخذه بالاعتبار حين يكون عُمر المرء قد ناهز الستّين. لن أتعجّب إذا كنتُ لا أكبر يوماً واحداً في هذه الأرض. رائع! أرض الشباب!»

فصاح ديغوري: «أوه! أرض الشباب! أتعتقد أنّها هكذا فعلاً؟» فبالطبع تذكّر ما قالته الخالة لِتّي للمرأة التي أحضرت عناقيد العنب، فعاوده ذلك الأمل العذب. وأضاف: «خالي أندرو، أتعتقد أنّ في هذه الأرض ما يمكن أن يشفي أمّي؟»

فقال الخال أندرو: «ماذا تقول؟ هذه ليست صيدليّة. ولكن كما كنتُ أقول...»

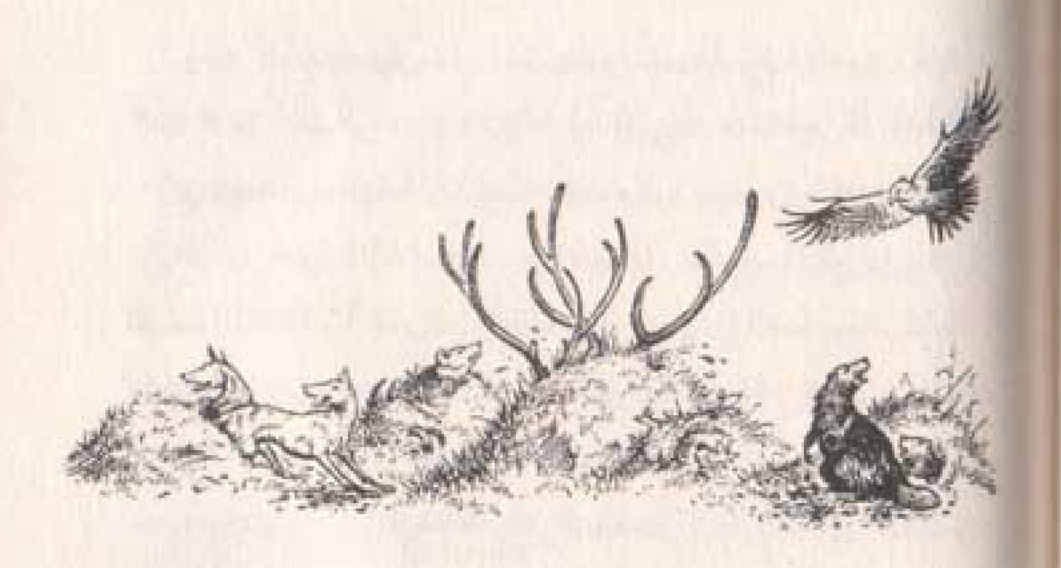
وقال ديغوري بقساوة وتهجّم: «أنت لا تهتمّ بها أبداً. وكنتُ أعتقد أنّك لا بدّ أن تهتمّ. فهي أُختك كما أنّها أمّي. حسناً، هذا غير مهم! إنّني أنوي فعلاً أن أسأل الأسد نفسه هل يقدر أن يساعدني». ثمّ أدار ظهره ومشى مبتعداً بسرعة. وانتظرت بولي لحظةً ثمّ لحقت به.

وقال الخال أندرو: «هاي! قفي! ارجعي! لقد جنّ الصبيّ». ثمّ لحق بالولدين مبتعداً عنهما مسافةَ أمانٍ وحذر، لأنّه لم يُرِد أن يبعد كثيراً عن الخاتمين الأخضرين ولا أن يقترب كثيراً من الأسد.

بعد دقائق قليلة وصل ديغوري إلى آخر الغابة، ووقف هناك. وكان الأسد ما يزال يغنّي. ولكنِ الآن كانت الأغنية قد تغيّرت مرّةً أخرى. فقد صارت أكثر شبهاً بما ينبغي أن ندعوه لحناً، لكنّها كانت أيضاً أكثر صخباً بكثير. فإنّها تجعلك راغباً في القفز والركض والتسلّق، وتجعلك راغباً في الصراخ، وتجعلك راغباً في الاندفاع نحو الآخرين إمّا لمعانقتهم وإمّا لمُعاركتهم. وقد جعلَت هذه

الأغنية ديغوري متحمّساً ومُتورِّد الوجه. وكان لها بعضُ التأثير على الخال أندرو، لأنَّ ديغوري استطاع أن يسمعه يقول: «إمرأة شُجاعة، يا سيدي. طبعُها سيّىء، لكنّها سيِّدة جميلة على كُلّ حال، جميلة حقًا». ولكن ما فعلته الأُغنية بهذين الإنسانين لم يكن شيئاً يُذكر إذا قارنّاه بما فعلته بالطبيعة.

هل تقدر أن تتخيّل قطعة كبيرة من الأرض ذات العشب تفور كالماء في قِدر؟ إنّ هذا أفضل وصف لِما كان يجري. ففي كلّ جهة كان يطلع منها تلال. وكانت تلالاً من كلّ حجم، بعضُها ليست أكبر من تلّ الخُلد، وبعضها بحجم عربة اليد، وتلّتان منها بحجم كوخين. ثمّ تحرّكت التلال وتمدّدت حتّى انفجرت، وتدفّق منها التراب المفتّت، ومن كُلّ تلّ طلع حيوان. فحيوانات الخُلد طلعت كما يطلع الخلد من أرض الحقول. والكلاب طلعت وهي تنبح لحظةَ بُروز رؤوسها، مجاهدةً كما تفعل كلابُنا وهي تمرّ من فتحة ضيّقة في سياج. أمّا الغزلان فكان التفرّج عليها أغرب شيء، لأنَّ قرونها المتفرّعة طبعاً ظهرت قبل باقي أجسامها بوقت طويل، حتّى اعتقد ديغوري أوّلاً أنّها أشجار. وأمّا الضفادع التي طلعت كلّها بقرب النهر، فقفزت فوراً إليه وغطست

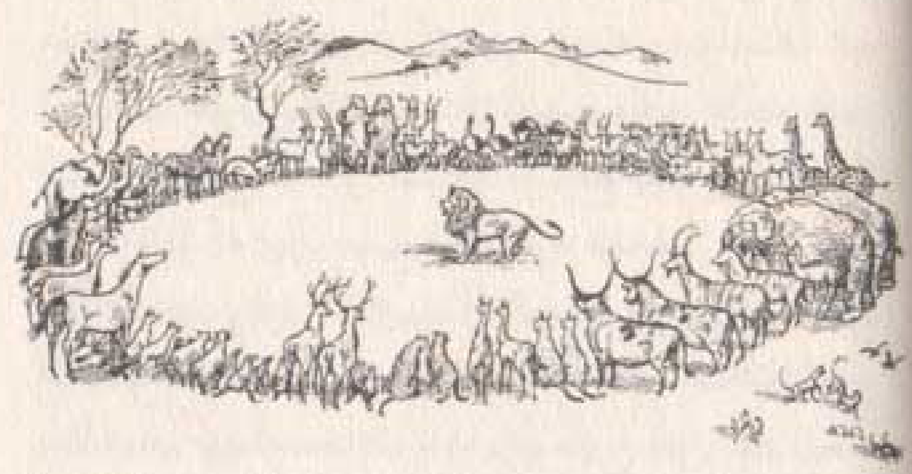


تنقّ في المياه المُبَقبقة. وأمّا النمور والفهود وما شابهها فقعدت حالاً لتنفض التراب عن جزئها الخلفي، ثمّ نهضت ووقفت مقابل جذوع الأشجار لتسنّ مخالبها الأماميّة عليها. وطلعت من الأشجار أسرابٌ من الطيور. ورفرف الفَراش. وراح النحل يشتغل على الزهر وكأنّه لا يريد أن يُضيّع ثانية واحدة. ولكنّ كانت أعظم لحظة لَمّا تشقّقت التلّة الكبرى بما يشبه زلزلة صغيرة، ومنها طلع ظهرٌ مُنحنٍ، ورأسٌ ذكيّ كبير، وأربع قوائم أجزاؤها السفلية فضفاضة، كوّنت كلها فيلاً ضخماً. والآن صار مستحيلاً تقريباً أن تسمع أغنية الأسد. فقد سُمِع كثير من النعيب والهديل والنعيق، والنهيق والصهيل، والنباح والعواء، والخوار والثُغاء والتغريد.

ومع أنَّ ديغوري لم يعُد يقدر أن يسمع الأسد، فقد كان قادراً أن يراه. وكان أسداً كبيراً جدًّا وبرّاقاً جدًّا، حتى صعب عليه أن يُبعِد عنه عينيه. وبدت الحيوانات الأُخرى غير خائفة منه. وبالحقيقة، سمِع ديغوري، في تلك اللحظة بالذات، وقْعَ حوافر من ورائه. وبعد ثانية واحدة جاوزه حصان العربة الهَرِمُ بسرعة، وانضمَّ إلى باقي الحيوانات. (الظاهر أنَّ الهواء لاءَمه كما لاءَم الخال أندرو. فلم يظهر عبداً ذليلاً مسكيناً كما كان في لندن، إذ رآه يرفع أقدامه بخفّةٍ وأُذناه منتصبتان) والآن سكت الأسد سكوتاً تامًّا أوّل مرّة، وأخذ يتمشّى ذهاباً وإياباً بين الحيوانات. وكان بين حينٍ وآخر يتقدّم إلى حيوانَين منها (إلى اثنين في وقت واحد دائماً) ويمسُّ أنفيهما بأنفه. فكان يُلامِس سمُّورين من بين جميع حيوانات السمُّور،



وفهدَين بين كلّ الفهود، ووعلاً وغزالاً بين جميع الوعول والغزلان. وقد تخطّى بعض أنواع من الحيوانات كليّاً. ولكنَّ كلَّ زوجَين لامسهما تركا فصيلتهما وتبعاه. وأخيراً وقف ساكناً وجاءت جميع الحيوانات التي لامسها ووقفت حواليه في دائرة واسعة. أمّا الحيوانات الأُخرى التي لم يلامسها فبدأت تبتعد بعيداً، وتلاشت



أصواتُها شيئاً فشيئاً في الأمكنة البعيدة. ولكنَّ الحيوانات المختارة التي بقيت سكتت الآن سكوتاً تامًّا. وفيما كانت الشبيهة بالهررة منها تحرّك أذنابها بين حينٍ وآخر، ظلّتِ الباقية كلُّها ساكنة ساكنة. وأوّل مرّة في ذلك اليوم ساد السكون الشامل، ما عدا خرير مياه جارية. وكان يخفق قلب ديغوري بشدّة، إذ عرف أنَّ شيئاً جليلاً جدًّا سيجري. لم يكن قد نسي حالة أمّه، ولكنّه علم يقيناً أنّه لا يقدر أن يُقاطع أمراً كذاك، ولو من أجلها.

حدّق الأسد، بعينين لا تطرفان أبداً، إلى جميع الحيوانات تحديقاً قويًّا، وكأنّه يكاد أن يحرق الجميع بمجرّد تحديقه. وتدريجيًّا، حصل تغيير للجميع. فالحيوانات الصُغرى - كالأرنب والخُلد وأشباههما - صارت أكبر حجماً إلى حدٍّ لا بأس به. أمّا الحيوانات الكبيرة جدًّا - ويمكنك أن تلاحظ ذلك في الأفيال خصوصاً - فقد صارت أصغر قليلاً. وقعدت حيوانات كثيرة على قوائمها الخلفيّة. وأمالت أغلبيتها رؤوسها إلى ناحية واحدة، كما لو كانت تحاول بكلّ جهد أن تفهم. وفتح الأسد فمه، ولكنْ ما خرج منه أيّ صوت، بل راح يُخرج نَفَساً حارًّا طويلاً ظهر أنّه يميل جميع الحيوانات كما تميل الريح صفّاً من الشجر. وفوق الرؤوس في البعيد، من وراء حجاب الفضاء الأزرق الذي يستر النجوم، عادت النجوم تُغنّي لحناً صافياً بارداً صعباً. ثمّ جاء برقٌ سريع مثل النار (لكنّه لم يحرِق أحداً) إمّا من الفضاء وإمّا من الأسد نفسه، فشعر الولدان بوخز شديد في كلّ نقطة من دمهما، فيما كان الصوت الأعمق والأقوى والأغرب بين كلّ ما سمعاه على الإطلاق يقول:

«نارنيا، نارنيا، نارنيا،
استيقظي. أحِبّي، فكّري، تكلّمي.
كوني أشجاراً تمشي.
كوني حيواناتٍ تنطق.
كوني مياهاً مقدّسة!»

الفصل العاشر

النُكتة الأولى وأُمور أُخرى

كان ذلك بالطبع صوت الأسد. وقد كان الولدان من زمان متأكدين أنّه يقدر أن يتكلّم. ولكنْ لمّا تكلّم، صُدما صدمةً لذيذة ورهيبة.

ومن الأشجار طلع أشخاص بَرّيّون: آلِهة الغابة وإلاهاتها، ومعهم فونات* وساطيرات** وأقزام. ومن النهر طلع إله النهر مع بناته الحوريّات. وهؤلاء كلّهم، مع جميع الحيوانات والطيور بأصواتها المختلفة، منخفضةً أو عالية أو ثخينة أو جليّة، جاوبوا:

«عاش أصلان! نحن نسمع ونطيع.
لقد استيقظْنا. ونحن نحبّ،
ونفكّر، ونتكلّم، ونفهم».

* الفونات: شخصيات تظهر في الأساطير الرومانية، نصفها السفلي كرجلي التيس، ونصفها العلوي كنصف الإنسان العلوي، مع قرني تيس. مفردها «فون».

** الساطيرات: شخصيات تظهر في الأساطير اليونانية، وهي مشابهة للفونات لكنها أعنف وأشدّ. مفردها «ساطير».

وقال صوتٌ كأنه شخير صادر من المناخير: «ولكنْ رجاءً، نحنُ لا نفهم في الوقت الحالي كثيراً!» وهذا جعل الولدين فعلاً يقفزان، لأنَّ المتكلِّم كان حصان العربة.

وقالت پولي: «هنيئاً لأبي فريز الهَرِم الطيِّب! أنا مسرورة لأنَّه واحد من الحيوانات التي وقع الاختيار عليها لتكون ناطقة». أمَّا السائق، وقد كان عندئذٍ واقفاً إلى جانب الولدين، فقال: «عجباً! ولكنّي طالما قلت إنَّ هذا الحصان كبير العقل».

ثمَّ قال صوتُ أصلانَ المتميِّز بالفرح والقوّة معاً: «أيتها المخلوقات، إنّي أُعطيكِ نفوسكِ. وأُعطيكِ إلى الأبد أرض نارنيا هذه. أُعطيكِ الغابات والأثمار والأنهار. أُعطيكِ النجوم، وأُعطيكِ نفسي. والحيوانات غير الناطقة التي لم أخترها هي لكِ أيضاً. فعامليها برِفق وقدِّريها، ولكن لا ترجعي إلى طرقها لئلّا ترجعي حيواناتٍ غير ناطقة من جديد. فمن بينها أخذتُكِ، وإليها يمكن أن تعودي. إنَّما لا تفعلي هذا».

فقال الجميع: «لا، يا أصلان، لَن نفعل، لن نعود». ولكنَّ غراب زيتون مَرِحاً أضاف بصوتٍ عالٍ: «هذا غير محتمل أبداً!» وكانت جميع الحيوانات الأخرى قد انتهت قُبيلَ قوله هذا، ولذا جاءت كلماته واضحة تماماً وسط سكوت تامّ. وربَّما تكون قد جرَّبتَ كم يكون هذا مُحْجِلاً، في حفلة مثلاً. فقد ارتبك غراب الزيتون كثيراً حتّى أخفى رأسه تحت جناحه كما لو كان سينام. وبدأت

جميع الحيوانات الأُخرى تُصدِر مختلف الأصوات الغريبة التي تقصد بها الضحك، والتي بالطبع لم يسمعها أحدٌ في عالمنا يوماً. وقد حاولت في البداية أن تكبتها، ولكنَّ أصلان قال:

«اضحكي ولا تخافي يا مخلوقات. فلأنّكِ الآن لم تعودي خرساء وحمقاء، لا ينبغي أن تكوني جدِّيَّة دائماً.



لأنَّ الدُّعابة، مثلها مثل العدالة، تُرافق النُّطق».

فأطلق الجميع أمواج الضحك. وعمَّ كثير من المرح والانشراح حتّى إنَّ الغراب بالذات استجمع شجاعته

من جديد وحطّ على رأس حصان العربة بين أُذنيه، وراح يُصفّق بجناحيه، وقال:

«أصلان، أصلان! هل نكّتُ أنا أوّل نكتة؟ وهل يُحكى دائماً للجميع كيف أطلقتُ أوّل نُكتة؟»

فقال الأسد: «لا، يا صديقي الصغير. أنت لم تطلِق أوّل نُكتة. بل إنمّا كنتَ أنت أوّل نكتة!» وعندئذ ضحك الجميع أكثر من ذي قبل. ولكنّ غراب الزيتون لم ينزعج، وضحك هو أيضاً ضحكاً عالياً، إلى أن هزّ الحصان رأسه



ففقد توازنه ووقع، لكنّه تذكّرَ جناحيه (كانا جديدَين بعدُ في الطيران) قبلَ وصوله إلى الأرض.

ثمّ قال أصلان: «ها قد تأسّست نارنيا الآن. فعلينا تالياً أن نفكّر كيف نحافظ على سلامتها. سأدعو بعضاً منكم إلى مجلسي. تعال إليّ هنا أيُّها القزم الرئيس، وأنت يا إله النهر، وأنتِ يا سنديانة، وأنتَ يا ذَكَر البوم، وأنتُما أيُّها الغُرابان الأسودان، وأنتَ يا ذَكَر الفيل. يجب أن نتحادث معاً. فمع أن العالم لم يتجاوز خمس ساعاتٍ من عمره، فقد دخله شرٌ حقًّا!»

فتقدّمت المخلوقات التي سمّاها، ومضى معها نحو الشرق. وبدأ الجميع بالكلام، وتردّدت أقوالٌ مثل هذه: «ماذا قال إنّه دخل العالم؟ – 'شرُّن'، وما 'شرُّن' هذا؟ لا، ما قال: 'شرُّن'، بل قال: 'شرْرُن' ... فما هو ذلك إذاً؟»

وقال ديغوري لپولي: «تطلّعي! عليّ أن أتبعه... أصلان، أعني الأسد. عليّ أن أتكلّم معه».

فقالت پولي: «هل تعتقد أنّنا نقدر على هذا؟ أنا لا أجرؤ على ذلك!»

قال ديغوري: «لا بدّ لي من ذلك. فالموضوع يخصّ أمّي. فإذا كان أحد يقدر أن يعطيني شيئاً ينفعها، فلا بدّ أن يكون هو».

وقال سائق العربة: «سأذهب معكما. لقد أحببتُ نظراته. ولا أعتقد أنّ هذه البهائم الأخرى تؤذينا.

كذلك أُريد أن أُكلِّم أبا فريز الهَرِم كلمة».

وهكذا تقدَّم الثلاثة بجرأة - أو بالجرأة التي عندهم - نحو الحيوانات المجتمعة. وكانت المخلوقات مشغولة جدًّا بمحادثة بعضها بعضاً وبالتعارف، حتّى إنّها لم تلاحظ البشريّين الثلاثة إلى أن صاروا قريبين جداً منها، ولا سمعت الخال أندرو وهو واقف يرتجف بجزمته المشدودة بالسيور على بُعد لا بأس به، صائحاً (ولكن ليس بأعلى صوته على الإطلاق): «ديغوري! ارجع إلى هنا! أقول لكَ: 'إرجع إلى هنا حالاً.' أنا أمنعك أن تتقدَّم خطوةً واحدة زائدة».

ولمّا وصلوا أخيراً إلى وسط الحيوانات، توقَّفت الحيوانات جميعاً عن التكلُّم وحدَّقت إليهم.

أخيراً قال السمُّور: «يا تُرى - باسم أصلان - ما هؤلاء؟»

وبدأ ديغوري يقول بصوتٍ يكاد ينقطع نفَسه: «رجاءً...» حين قال أرنب: «إنّهم نوع من الخَسّ الكبير، هذا ما أعتقده!»

فقالت بولي بسرعة: «لا، لسنا خسًّا، أؤكِّد لكم أننا لسنا كذلك. نحن لا نصلح للأكل أبداً».

وقال الخُلد: «هاه! إنّهم يقدرون أن يتكلَّموا. فمَن سمع بِخسّة تتكلَّم؟»

أمّا غراب الزيتون فأدلى بهذا الرأي: «لعلّهم النُكتة الثانية!»

ولكنَّ نمراً كان يغسل وجهه توقَّف هُنيهة وقال: «طيِّب، إذا كانوا النكتة الثانية، فليسوا أبداً بمثل طرافة الأولى. على الأقلّ، أنا لا أجد فيهم أيَّ شيء مضحكاً جدًّا». ثمَّ تثاءب وأكمل غسل وجهه.

وقال ديغوري: «رجاءً! أنا مستعجل جدًّا. أرغب في رؤية الأسد».

أمّا سائق العربة فكان طيلة هذا الوقت يحاول أن يحظى بنظرة من عين أبي فريز. ولمّا حصل ذلك قال: «والآن، يا أبا فريز، يا صاحبي العتيق، أنت تعرفني. فلن تقف هناك وتقول إنّك لا تعرفني».

وقالت عدَّة أصوات: «عمَّ يتكلَّم هذا الشيء، يا حصان؟»

فقال أبو فريز بتمهُّل كثير: «حسناً، لا أعرف تماماً، وأعتقد أنَّ معظمنا لا يعرفون الكثير عن أيِّ شيء بَعد. ولكنّي أظن أنني رأيتُ شيئاً كهذا من قبل. لديَّ شعور بأنّني عشتُ في مكان آخر - أو كنتُ شيئاً آخر - قبل أن يوقظنا أصلان جميعاً قبل دقائق. الأُمور مختلطة عليَّ جدًّا، وكأنّني في حلم. ولكن كان في الحلم أشياء مثل هؤلاء الثلاثة».

فقال السائق: «ماذا؟ ألا تعرفني؟ أنا مَن كنتُ أُحضر لك علفة الحنطة والنخالة الساخنة في المساء كلَّما مرضت؟ أنا مَن كنت أفرك جلدك جيّداً؟ أنا من كنت لا أنسى أن ألفَّك بالحرام كلمّا وقفت في البرْد؟

لم أكُن أظنُّ أنّك تفعل هذا بي، يا أبا فريز!»

فقال الحصان مفكّراً: «بدأت الذاكرة ترجع فعلاً. نعم، لأفكّرِ الآن، لأفكّر. بلى، كنتَ تربط شيئاً أسود رهيباً خلفي ثمّ تضربني حتّى أركض، ومهما ركضتُ بعيداً كان ذلك الشيء الأسود دائماً يسير ورائي مُقَرقِعاً ومُقَعقِعاً».

فقال السائق: «كان علينا أن نكسب لقمة عيشنا، لقمتك ولقمتي على السواء. ولولا الشغل والسوط، ما كان لكِ اسطبل ولا تبن ولا شوفان ولا علفة ساخنة. فقد كنتُ أطعِمك شيئاً من الشوفان عندما أقدر على شرائِه، ولا يمكن لأحدٍ أنْ ينكر هذا».

حينئذٍ قال الحصان، وقد رفع أُذنيه: «شوفان؟ بلى، أتذكّر شيئاً عن هذا. بلى، أتذكّر أكثر وأكثر. كنتَ دائماً تقعد في مكانٍ ورائي، وكنتُ أنا دائماً أركض قدّامك، أجرُّك أنت وذلك الشيء الأسود. أعرفُ أنّ الشغل كلّه كان عليّ أنا».

وقال السائق: «أوافقُك الرأي على أن العمل في الصيف الحار صعب جداً عليك، في حين أكون جالساً في جوٍّ لطيف على المقعد. ولكن ماذا تقول عن الشتاء، يا صاحبي العتيق، لمّا كنتَ تُدفّىء نفسك وأنا قاعد هناك في الأعلى ورجلاي كالثلج وأنفي مُخدَّر من الريح الباردة، ويداي تُنمّلان حتّى لا أقدر أن أُمسِك بِسَير لجامك إلاّ بكلّ صعوبة؟»

فقال أبو فريز: «كانت بلاداً قاسية وصعبة. لم يكن على الأرض أيُّ عشب، بل حجارة صلبة فقط».

وقال السائق: «صحيح جدًّا، صحيح جدًّا، يا صاحبي. كان عالماً قاسياً. وكنتُ دائماً أقول إنّ الحجارة المرصوف بها الطريق لا تلائم أيَّ حصان. ولكنَّ هذا صار من الماضي، وأنا مثلك لم أحبّه. كنتَ حصاناً ريفياً، وانا كنتُ ابن قرية. وقد كنتُ أغني في الجوقة، هُناك في بلدتي. ولكن لم يكن عندي مهنة أعتاش بها هناك».

وقال ديغوري: «أُوه، رجاءً، رجاءً! ألا يمكننا أن نتقدّم؟ ها هو الأسد يبتعد أكثر فأكثر. وأنا أُريد من كلّ قلبي أن أكلمه!»

فقال السائق: «تطلّع إليّ، يا أبا فريز! في فكرِ هذا الفتى شيء يريد أن يُكلّم عنه الأسد، أقصد ذاك الذي تدعونه أصلان. فلنفرضْ أنك سمحت له بالركوب على ظهرك (وسيكون لطيفاً جدًّا في هذا) لتنقله بسرعة إلى حيث الأسد. أمّا أنا والبنت الصغيرة فنتبعكما إلى هناك».

قال أبو فريز: «ركوب؟ أُوه، تذكّرتُ الآن. هذا يعني أن يقعد على ظهري فأحمله. أتذكّر أنَّ صغيراً منكم، يا ذَوي الرِّجْلَين، كان يفعل بي ذلك منذ زمن بعيد. وكان يحمل قِطعاً مكعّبة صغيرة من مادّة بيضاء يُعطيني إيّاها. وقد كان طعمها ـ أُوه ـ عجيباً، أحلى من الحشيش».

فقال السائق: «آه، ذلك هو السُكّر!»

وترجّى ديغوري قائلاً: «رجاءً، من فضلك، اسمح لي بالركوب، وخُذني إلى أصلان!»

فقال الحصان: «طيِّب، لا بأس. هي مرّة واحدة. اركب!» وقال السائق: «يا لك من حصان طيّب يا أبا فريز! هيّا بُنيّ، سأرفعك قليلاً». وسرعان ما صار ديغوري على ظهر أبي فريز، وكان مستريحاً تماماً، إذ سبق له أن ركب على مهره الخاص بِلا سَرْج. وقال: «هيا، بسرعة يا أبا فريز».

فقال الحصان: «ألا تحمل بالصدفة قطعة من تلك المادّة البيضاء؟»

وقال ديغوري: «لا، يا ليتني كنتُ أحمل!»

فقال أبو فريز: «طيّب، ما باليد حيلة»، ثمّ انطلق به مسرعاً.

في تلك اللحظة قال كلب بُلدغ كبير كان يلهث ويُحملِق بشدة: «عجباً! أليس هذا واحداً من هذه المخلوقات الغريبة، هناك قرب النهر تحت الأشجار؟»

عندئذٍ نظرت جميع الحيوانات فرأت الخال أندرو، واقفاً بلا حراك بين شُجيرات الرودَندرودوزن، أملاً ألاّ يراه أحد.

فقالت بضعة أصوات: «هيّا، لنذهب وننظر!» وهكذا، فبينما كان أبو فريز يركض مُسرعاً، وديغوري على ظهره، في اتّجاهٍ معيّن (يتبعهما بولي وسائق العربة) اندفعت أغلبيّة الحيوانات نحو الخال أندرو، مُطلِقةً أصوات ابتهاج وحماسة مختلفة، بين زمجرة وعواء ونُباح وخوار ونخير.

والآن يجب أن نرجع إلى الوراء قليلاً لنشرح كيف ظهر المشهد كلّه من وجهةِ نظر الخال أندرو. فقد ترك المشهد عند الخال أندرو انطباعاً مختلفاً تماماً عن انطباع السائق والولدين. ذلك أنّ ما تراه وتسمعه يتوقّف إلى مدىً بعيد على المكان الذي أنت فيه، كما يتوقّف على أيّ نوع من الأشخاص أنت.

فمنذ ظهور الحيوانات في البداية، أخذ الخال أندرو يتوارى في الدَّغل. كان يراقبها بالطبع مراقبةً دائمة، ولكنّه لم يكن بالحقيقة مهتمّاً بما كانت تفعله، بل كان يحرص على ألّا تهاجمه. فمثله مثل الساحرة، كان معنيّاً بما يخصّه وينفعه فقط. ولم تلاحظ قطُّ أنّ أصلان اختار زوجين من كلّ نوع من الحيوانات. فكلّ ما رآه، أو اعتقد أنّه رآه، كان مجموعةً من الحيوانات البرّيّة الخطرة تجول بلا هدف. وظلّ يتساءل عن السبب الذي جعل الحيوانات الباقية لا تهرب من الأسد الكبير.

ولمّا جاءت اللحظة العظيمة ونطقت الحيوانات، فاته الأمر كلّه، وذلك لسبب مؤثّر فعلاً. فلمّا بدأ الأسد يُغنّي في البداية، عندما كانت الظلمة ما تزال مخيّمة، أدرك أنّ ذلك الصوت كان غناءً. وقد كره الأغنية كُرهاً شديداً، إذ جعلته يتصوّر ويحسّ أشياء لم يكن يريد أن يتصوّرها ويحسّها. ثمّ لمّا طلعت الشمس وتبيّن له أنّ المغنّي كان أسداً («مجرّد أسد» كما قال هو لنفسه) حاول بكلّ جهده أن يُقنِع نفسه بأنّ ذلك الأسد لم يكن يغنّي ولم

يكُن قد غنّى قطّ، بل كان يزمجر فقط مثل أيّ أسد في أيّة حديقة حيوانات في عالمنا هذا.

فقد فكّر: «طبعاً، من المستحيل أنّه كان يغنّي فعلاً. لا بُدّ أنّي تخيّلتُ ذلك. لقد سمحتُ لأعصابي أن تتوتّر. فأيّ إنسان سمع يوماً بأسدٍ يغنّي؟» وكلمّا طال غناء الأسد وصار أعذب، بذل الخال أندرو جهداً أكثر ليُقنِع نفسه بأنّه لا يقدر أن يسمع إلّا الزمجرة. والمشكلة في محاولتك أن تجعل نفسك أغبى ممّا أنت فعلاً هي أنّك تنجح في هذا أغلبَ الأحيان. وهكذا حدث للخال أندرو. فسرعان ما عاد لا يسمع إلّا الزمجرة في أُغنية أصلان. وبعد قليل لم يكُن ممكناً أن يسمع أيّ شيء آخر، حتّى لو أراد. وعندما تكلّم الأسد أخيراً وقال: «نارنيا، استيقظي»، لم يسمع إلّا شخيراً. ولمّا تكلّمت البهائم مجُاوِبة، لم يسمع غير نباح وهرير وعواء وهبهبة. ثمّ لمّا ضحكت ـ حسناً، يمكنك أن تتصوّر ـ كان ذلك عند الخال أندرو أسوأ من أيّ شيء جرى حتّى ذلك الحين. فلم يسمع في حياته قبلاً مثل ذلك الضجيج المروّع والمتعطّش للدماء صادراً من بهائم جائعة وغاضبة. ثمّ وصل غيظه ورعبه إلى القمّة لمّا رأى البشريّين الثلاثة الآخرين يتقدّمون في الهواء الطلق ليُلاقوا الحيوانات. فقال لنفسه:

«ما أغباهم! الآن تأكل هذه البهائمُ الخواتمَ مع الولدين، ولن أقدر أبداً أن أرجع إلى دياري. يا لديغوري ذاك من صبيّ صغير أنانيّ! والآخران مثله في الرداءة. إذا أرادوا أن يتخلّوا عن حياتهم، فهذا شأنهم. ولكنْ

ماذا عني أنا؟ لا يظهر أنّهم يفكّرون في ذلك. لا أحد يُفكّر فيّ».

أخيراً، لمّا اندفعت نحوه جمهرة من الحيوانات، التفت وهرب لينجو بحياته. وكان يمكن آنذاك لأيّ إنسان أن يتأكّد أنّ الهواء في ذلك العالم الجديد قد نفع الرجل العجوز حقّاً. ففي لندن كان تقدّمه في السنّ قد منعه من الركض منذُ زمنٍ بعيد، أمّا الآن فراح يركض بسرعة تضمن له الفوز بسباق المئة متر في أيّ مدرسة إعداديّة ببريطانيا. وكان مُضحكاً منظر ذيل سترته وهو يطير وراءه. ولكن بالطبع لم ينفعه ذلك، فكثير من الحيوانات وراءه كانت حيوانات سريعة. وكانت تلك أوّل ركضة تركضها في حياتها، وكانت كلّها متشوّقة لاستعمال عضلاتها الجديدة. وعلا صياحها: «وراءه، وراءه! ربّما كان هذا هو شرْزُن! يا هُوه! حَيْلَكم! بسرعة! اقطعوا عليه الطريق! طوّقوه! أسرعوا! هُوراه!»



وفي دقائق قليلة، صارت بعض الحيوانات قُدّامه، فاصطفّت في صفّ وقطعت طريقه. وطوّقه غيرُها من الوراء. فأينما التفت، رأى أهوالاً. وأطلّت عليه قرون الوعول الكبيرة، ووجهُ فيلٍ ضخمٌ. وشخرت وراءه ونخرت دببةٌ وخنازير بريّة كبيرة الحجم تصوَّر أنّها تنوي له شرًّا. وحدّقت إليه فهود وغور هادئة المنظر ذات وجوه ساخرة (كما تخيّل)، وهي تهزّ أذنابها. وكان ما صعقه أكثر من أيّ شيءٍ آخر عدد الأفواه المفتوحة. فإنّ الحيوانات بالحقيقة فتحت أفواهها لتلهث، لكنّه اعتقد أنّها فتحتها لتأكله.

وهكذا وقف الخال أندرو مرتجفاً ومترنّحاً. فلم يكن يحب الحيوانات قطّ في أحسن الأوقات، بل كان بالأحرى يخاف منها دائماً. كما أنّ سنين من إجراء الاختبارات القاسية على الحيوانات جعلته يكرهها ويخاف منها أكثر بكثير.

ثمّ قال كلب البُلدغ بطريقته الجادّة: «يا سيّد، أحيوان أنت أم نبات أم جماد؟» ومع أنّ البُلدغ قال هذا حقّاً، فقد كان كل ما سمعه الخال أندرو: «اغرررارامو!»



ديغوري وخالُه كلاهما في ورطة

ربمّا تعتقد أنّ الحيوانات كانت غبيّة جدًّا حتى إنها لم تدرك حالاً أنّ الخال أندرو هو مخلوق من نوع الولدَين والسائق. ولكن يجب أن تتذكّر أنّ الحيوانات لا تعرف شيئاً عن الثياب. فقد ظنّت أنّ فستان بولي وطقم ديغوري وقُبّعة السائق كانت كلُّها جزءاً من أجسامهم، مثل فروها وريشها هي. ولم تكن الحيوانات لتعرف أيضاً أنّ هؤلاء الثلاثة كانوا كلُّهم من نوع واحد لو لم يكلّموها، ولو لم يظهر أنّ أبا فريز يعتقد ذلك. كما أنّ الخال أندرو كان أطول بكثير جدًّا من الولدين وأنحف بكثير جدًّا من السائق. وكان الخال أندرو لابساً ثياباً كلُّها سوداء ما عدا صُدرته البيضاء (التي لم تعُد بيضاء كثيراً الآن). وكتلة شعره الأشيب الكثيفة (وقد صارت الآن منفوشة وغريبة الشكل) لم تظهر للحيوانات كأيّ شيء سبق أن رأته في البشريَّين الثلاثة الآخرين. وهكذا كان من الطبيعيّ فعلاً

أن تستولي عليها الدهشة والحيرة. أمّا أسوأ شيء، فكان أنّه بدا لا يستطيع يتكلّم.

لقد حاول الخال أندرو أن يتكلّم. فلمّا كلّمه كلبُ البُلدغ (أو كما تصوّر، لمّا زمجر عليه أوّلاً ثمّ هرّ)، مدّ يده المرتجفة، وقال لاهثاً: «أيُّها الكُلَيبُ الطيّب، أشفِق على العجوز المسكين!» ولكنّ البهائم لم تفهم كلامه، كما لم يفهم هو ما تقوله. فما قاله لم يكن كلاماً واضحاً، بل صوتَ بقبقةٍ غامضاً. وربما كان من الخير أيضاً أنّ الحيوانات لم تفهم كلامه، لأنّه ما من كلب عرفتُه – وعلى الأقلّ كلب ناطق في نارنيا – يحبُّ أن يُدعى «كليباً طيّباً»، كما لا تحبُّ أنت أن تُدعى «رجُلاً قزماً».

ثمّ سقط الخال أندرو أرضاً، مُغميّ عليه كالميت.

فقال خنزير برّيّ: «مهلاً! ما هذا إلّا شجرة. وقد



اعتقدتُ ذلك دائماً». (لا تنسَ أنّ الحيوانات لم تكن قد رأت إغماءةً أو حتّى وقعة).

أمّا كلب البُلدغ، الذي أخذ يشمّ الخال أندرو في جميع أجزاء جسمه، فرفع رأسه وقال: «إنّه حيوان. حتماً حيوان. والأرجح أنّه من نوع أولئك الآخرين».

وقال واحد من الدببة: «لا أظنّ ذلك. فالحيوان لا ينقلب وينبطح هكذا. نحن حيوانات، ونحن لا ننقلب. نحن نقف باستقامة. نقف هكذا!» ثمّ قام على قائمتيه الخلفيّتين، وتراجع خطوةً إلى الوراء، فتعثّر بغصن منخفض وسقط ممدّداً على ظهره.

عندئذٍ قال غراب الزيتون بكثير من الحماسة: «النكتة الثالثة، النكتة الثالثة، النكتة الثالثة!»

فقال الخنزير البرّيّ: «ما زلت أعتقد أنّ هذا شجرةٌ من نوع ما».

وقال الدبُّ الآخر: «هو شجرة. وربّما كان فيها قفير نحل».

وقال الغُرَير: «أنا متأكّد أنّه ليس شجرة. فأظن أنّه حاول أن يتكلّم قبلما سقط أرضاً».

فقال الخنزير البرّيُّ: «لم يكُن ذلك إلّا الريح في أغصانها».

وقال غراب الزيتون للغُرَير: «أنت حقاً لا تعني ما تقول من أنّه حيوان ناطق! فهو لم يقل أيّ كلمة!»

فقالت الفِيلة (وأنت تذكر أنّ أصلان استدعى زوجها

الفيل): «ومع ذلك، أنت تعلم، قد يكون حيواناً من نوع ما. ألا يمكن ان تكون هذه الكتلة المائلة إلى البياض في هذا الطرف وجهاً من نوع ما؟ أولا يمكن أن تكون هذه الثقوب عينَين وفماً؟ طبعاً، لا أنف لهُ. ولكنْ - أحُمْ - يجب ألّا يكون الواحد منّا قليل العقل. فإن لدى قلة قليلة منا فقط ما يمكن أن نسمّيه أنفاً». ثمّ نظرت نظرة ازدراء من وراء خرطومها الضخم، بكبرياءٍ معذورة.

وقال كلب البُلدغ: «أعترض على هذه الملاحظة اعتراضاً شديداً».

فقال حيوان التابير*: «الفيلة على حقّ تماماً».

وقال الحمار: «دعوني أُخبركم ما هو! لعلّه حيوان لا يقدر أن يتكلّم ولكنّه يظنُّ أنّه يقدر».

فقالت الفيلة بتعقّل: «ألا يمكن جعْله يقف مستقيماً؟» ثمّ التقطت جسم الخال أندرو الرخوَ بخرطومها بكلّ رفق، وأوقفته - لسوء الحظ - بشكل مقلوب ورأسُه إلى تحت، فسقطت من جيبه بعض القِطَع النقديّة الذهبية والفضية، ولكنّ ذلك مانفع، إذإنّ الخال أندروعادفوقع من جديد مُنهاراً.

وقالت عدّة أصوات: «مهلاً! إنه ليس حيواناً على الإطلاق. فهو غير حيّ».

فقال البُلدغ: «أقول لكم إنّه حيوان. شمُّوه بأنفسكم!»

وقالت الفيْلة: «ليس الشمُّ هو الدليل الجازم».

* التابير أو آكل النمل: حيوان استوائي ليلي، شفته العليا طويلة.

فسأل البُلدغ: «كيف! إذا كان الواحد لا يقدر أن يتكل على أنفه، فعلامَ يتّكل؟»

أجابت بلطف: «حسناً، ربمّا على عقله».

فقال البُلدغ: «أعترض على هذه الملاحظة اعتراضاً شديداً».

وقالت الفيْلة: «إنمّا علينا أن نفعل شيئاً بخصوص هذا الأمر. فربمّا كان هذا 'شرْرُن'، ويجب أن نعرضه على أصلان. ماذا يعتقد معظمكم؟ أحيوان هو أم شيءٌ ما من نوع الشجر؟»

فصاح بضعة عشر صوتاً: «شجرة! شجرة!»

فقالت الفيْلة: «جيّد جدًّا! إذا كان شجرة، يجب أن نغرسها. فعلينا أن نحفر حفرة».

وتولّى الخُلدان القيام بهذا الجزء من العمل على عجل. وحصل خلاف حول القسم الذي يجب طمره في الحفرة من الخال أندرو، وبالكادّ نجا من أن يوضع رأسُه في الحفرة أوّلاً. فبعض الحيوانات قالت إنّ رجليه يجب ان تكونا أغصانه، ولذلك لا بُدّ أنّ تكون الكتلة البيضاء المنفوشة (أي رأسه) هي جذوره. ثمّ قالت حيوانات أُخرى إنّ طرفه المنفسخ كالشوكة كان أكثر اتساخاً بالوحل، فلا بدّ أن ينتشر أكثر، كما يجب أن تنتشر الجذور. وأخيراً تمّ غرسُه ورأسُه إلى فوق. ولمّا سُوّي التراب، وصل إلى ما فوق ركبتيه.

ثمّ قال الحمار: «تبدو شجرةً يابسة جداً بصورة رهيبة».

فقالت الفيْلة: «طبعاً، فهي بحاجة إلى بعض الماء.

وأعتقد أنَّه يمكنني أن أقول (وأنا لا أقصد الإساءة إلى أيِّ من الحضور) إنَّ أنفي مناسب للقيام بهذه المهمَّة...»

وقال كلب البُلدغ: «أعترض على هذه الملاحظة اعتراضاً شديداً». ولكنَّ الفيْلة مشت بهدوء صوب النهر، وملأت خرطومها ماءً، ورجعت كي تهتمَّ بأمر الخال أندرو. وظلَّت هذه البهيمة الذكيَّة تفعل ذلك حتَّى رشَّت عليه لتراتٍ من الماء، وجرى الماء من أذيال سترته، كما لو أنَّه استحمَّ وهو لابس ثيابه. وفي النهاية أنعشه الماء، فأفاق من إغماءته. وما كان أحسنها من يقظة! إلَّا أنَّ علينا أن نتركه



حتَّى يفكِّر في عمله الشرِّير (إن كان ممكناً ان يفعل شيئاً متعقّلاً كهذا)، وننتقل إلى أمور أكثر أهميَّة.

مضى أبو فريز مسرعاً وديغوري على ظهره، إلى أن تلاشت أصوات باقي الحيوانات، وصارت جماعةُ أصلان الصغيرة ومُستشاروه المختارون قريبةً جدًّا. وقد عرف ديغوري أنَّه ربَّما لا يقدر أن يُقاطع اجتماعاً خطيراً كهذا، ولكنَّ الحاجة لم تستدعِ ذلك. فبكلمة من أصلان، تنحَّى جانباً الفيل والغرابان وجميع الحيوانات الأُخرى. ونزل ديغوري عن الحصان منزلقاً، فوجد نفسه امام أصلان وجهاً لوجه. وإذا بأصلان أكثر مما ظنَّ ديغوري ضخامة وجمالاً، ولوناً ذهبيّاً لمّاعاً، وهيبةً ورهبة. فلم يستجرىء أن ينظر إلى عينيه العظيمتين، وقال: «رجاءً، سيِّدي الأسد، أصلان! هل لي - أتسمح لي من فضلك - أن تعطيني بعض الفاكهة السحريَّة من هذا البلد لشفاء أُمّي؟»

كان يتمنَّى من كلِّ قلبه أن يقول الأسد «نعم»، وكان يخاف أشدَّ خوفٍ أن يقول «لا». ولكنَّه فوجىء لمّا لم يقُل الأسد أيّاً منهما.

ثمَّ نظر أصلان إلى مُستشاريه، لا إلى ديغوري، وقال: «هذا هو الصبيّ. هذا هو الصبيُّ الذي عمل ذلك».

ففكَّر ديغوري: «يا ويلاه! ماذا عملتُ الآن؟»

وقال الأسد: «يا ابن آدم، في نارنيا، أرضي الجديدة، ساحرةٌ شرّيرة طليقة. خبِّر تلك الحيوانات الصالحة كيف وصلَتْ إلى هنا».

خطرت على بال ديغوري أكثر من عشرة أشياء مختلفة يمكن أن يقولها، ولكنّه كان صائب الرأي بحيث لم يقل إلّا الحق الكامل، إذ أجاب بصوتٍ خافت:

«أنا أتيتُ بها، يا أصلان».

«لأيّة غاية؟»

«أردتُ أن أُخرِجها من عالمي وأُرجِعَها إلى عالمها. وحسبتُ أنّي مُرجِعُها إلى بلدها».

«وكيف وصلَت إلى عالمك، يا ابن آدم؟»

«بواسطة... بواسطة السحر».

فما قال الأسد شيئاً، وعرف ديغوري أنّه لم يُخبِرْه بما يكفي، فتابع قائلاً:

«إنه خالي، يا أصلان! فهو أرسلنا من عالمنا بخواتم سحريّة. على الأقلّ، كان عليّ أنا أن أذهب لأنّه أرسل بولي أوّلاً. ثمّ قابلْنا الساحرة في مكانٍ اسمُه شارْن، وقد التصقَت بنا لمّا...»

«أنتَ قابلتَ الساحرة؟» قالها أصلان بصوتٍ خافت ظهرت فيه ملامح زمجرة مكبوتة.

فردّ ديغوري ببؤس: «هي استيقظَت». ثمّ أضاف وقد شحب وجهه جدًّا: «أقصد أنّي أنا أيقظتُها. لأنّي أردت أن أعرف ما يحدث إذا قرعت جرساً. لم تكن بولي تريد قرعه. لم تكن الغلطة غلطتها. أنا، أنا عاركتُها. أعرفُ أنّه كان عليّ ألّا أفعل ذلك. أعتقد أنّ العبارات المكتوبة تحت الجرس سحرتني قليلاً».

فسأله أصلان: «صحيح؟» وهو ما زال يتكلّم بصوتٍ خافت وعميق جدًّا.

أجاب ديغوري: «لا! الآن فهمتُ أنّي ما كنتُ مسحوراً، وإنّما كنتُ أتظاهر بذلك».

ثمّ ساد صمتٌ طويل، وديغوري يفكّر طول الوقت: «لقد أفسدتُ كلّ شيء. ضاعت منّي الآن كلُّ فرصة للحصول على أيّ شيء ينفع أُمّي!»

ولمّا تكلّم الأسد من جديد، لم يكن يخاطِب ديغوري. وقال: «ترون، يا أصحاب، أنّه قبل أن يبلغ العالم النظيف الجديد سبع ساعات من عمره دخلَته قوّةٌ شرّيرة، أيقظها وأتى بها إلى هنا ابنُ آدم هذا».

عندئذٍ حوّلت جميع البهائم، حتّى أبو فريز، أنظارَها صوب ديغوري بحيث تمنّى لو تنشقّ الأرض وتبلعه. وقال أصلان وهو ما يزال يخاطب الحيوانات: «ولكنْ لا تحزنوا. إنّ الشرّ سيطلع من تلك القوّة الشريرة، ولكنّ ذلك ما زال بعيداً. وسأدبّر الأمر بحيث يقع الأسوأ عليّ أنا. ففي هذه الأثناء، لنرتّبْ أن يبقى هذا المكان أرضاً سعيدة في عالم سعيد على مدى مئات السنين الآتية. وبما أنّ نسل آدم قد أحدث الضرر، فنسل آدم سيُساعد على إصلاحه. اقتربا إليّ، أنتما الاثنين الآخرين!»

هذه الكلمات الأخيرة وُجّهت إلى بولي والسائق، إذ كانا قد وصلا الآن. وبدت بولي مشدوهة إذ حدّقت إلى أصلان مُمسِكةً بيد السائق بشدّة. وألقى السائق

نظرة واحدة على الأسد، ثمّ نزع قُبّعته: وما كان أحد قد رآه بلاها بعد. فلّما نزعها، ظهر أكثر شباباً وحُسناً، أكثر شبهاً بأهل الريف وأقلّ شبهاً بسائقي العربات في لندن.

وقال أصلان للسائق: «يا بُنيّ، أنا أعرفك من زمان. فهل تعرفني أنت؟»

فقال السائق: «لا، ياسيدي. على الأقلّ، ليس بالطريقة المُعتادة. ومع ذلك أشعر - إذا سمحت لي بكشف قلبي في حضرتك - بأنّنا ربّما التقينا من قبل».

قال الأسد: «أحسنت! إنّك تعرف أفضل مما تعتقد. ولَسوف تعيش حتّى تعرفني معرفةً أفضلَ. هل تعجبك هذه الأرض؟»

أجاب السائق: «إنّها رائعة، يا سيدي».

«أتحبُّ أن تسكن هنا دائماً؟»

«حسناً! يا سيدي، أنا رجل متزوّج. فلو كانت زوجتي هنا، لما رغبَ أيٌّ منّا في الرجوع إلى لندن، كما أظنّ. فكلانا بالحقيقة من أهل الريف».

ثمّ رفع أصلان رأسه الأشعث، وفتح فمه، وأطلق نغماً طويلاً وحيداً، غيرَ عالٍ لكنْ مليئاً بالقوّة. فقفز قلب پولي داخل جسمها لمّا سمعته. وعلمت يقيناً أنّ ذلك النغم نداء، وأنّ كلّ من يسمع هذا النداء يرغب في إطاعته، كما أنّه (فوق ذلك) يصير قادراً على إطاعته، مهما فصلته عن ذلك عوالم وعصور. وهكذا،

فمع أنّ العجب ملأ قلبها، لمْ تُدهَش ولمْ تُصدَم فعلاً لمّا وقفت بقربها فجأةً امرأةٌ شابّة ذات وجه لطيف وشريف، طلعت من حيث لا تدري. وفي الحال عرفت پولي أنّها زوجة السائق، وقد أُحضِرت من عالمنا لا بأيّ خاتم سحريّ مُتعب، بل بسرعة وسهولة وعذوبة، كما يطير العصفور إلى عُشّه. وظهر أنّ المرأة الشابّة كانت في نصف نهار غسيل، إذ كانت لابسة مريولها وقد شمّرت كُمّيها حتّى الكوعين، ورغوة الصابون تُغطّي يديها. ولو كان عندها وقت لتلبس أفضل ثيابها (كان على قبّعتها المفضّلة حبّات كرز صناعيّة)، لظهر منظرها مروّعاً. ولكنّها على حالها، كانت أجمل منظراً.

طبعاً، كانت تظن أنّها تحلم. ولذلك لم تندفع مسرعةً نحو زوجها لتسأله ماذا جرى لهما كليهما. لكنّها لمّا تطلّعت إلى الأسد، شعرت أنها غير متأكّدة تماماً أنّها في حلم، ومع ذلك فلسبب من الأسباب لم يظهر عليها أنّها خائفة كثيراً. ثمّ انحنت انحناءة احترام بسيطة، مثلما لا تزال بعضُ بنات القرى يعرفنَ أن يعملن في أيّامنا هذه. وبعد ذلك تقدّمت وأمسكت يد السائق بيدها، ووقفت هنالك تتطلّع حواليها بشيء من الخجل.

فثبّت أصلان نظره عليهما معاً وقال: «يا ولديّ، ستكونان أنتما أوّل ملك وملكة في نارنيا».

وانفتح فم السائق من دهشته وذهوله، واحمرّ خدّا زوجته كثيراً، فيما تابع أصلان يقول:



«ستحكمان وتُسمّيان هذه المخلوقات كلّها، وتُجريان العدالة بينها، وتحميانها من أعدائها عندما يقوم الأعداء. ولسوف يقوم الأعداء، لأنّ في هذا العالم ساحرةً شرّيرة».

بلع السائق ريقه بصعوبة مرّتين أو ثلاثاً، حتّى سلّك حنجرته، وقال: «أرجو عفوك يا سيدي، وأشكرك كثيراً، فأنا متأكّد (وكذلك زوجتي) أنّني لست رجُلاً مؤهلاً لمثل هذه الوظيفة. أنا غير مُتعلّم كثيراً كما تعرف».

فقال أصلان: «طيّب! هل تقدر أن تستعمل مجرفة وسكّةَ فلاحة لتُطلع من الأرض غِلالاً وطعاماً؟»

«نعم سِيدي، أقدر أن أعمل شيئاً من هذا العمل، لأنّني تربّيت عليه».

«أتقدر أن تحكم هذه المخلوقات بلطف وإنصاف، متذكّراً أنّها ليست عبيداً مثل الحيوانات الخرساء في العالم الذي وُلدتَ فيه، بل بهائم ناطقة ورعايا أحرار؟»

فقال السائق: «فهمتُ يا سِيدي. سأُحاول أن أعاملها كلّها بالعدل والحُسنى».

«وهل تُربّي أولادك وأحفادك حتّى يعملوا ذلك أيضاً؟»

«سيكون عليّ أن أُجرّب يا سِيدي. سنأبذل كلّ جهدي. أليس هكذا يا نِلّي؟»

«ولن تُميّز أيضاً بين أولادك، ولا بين المخلوقات الأُخرى، ولن تسمح لأيّ فرد بالتسلّط على غيره أو بجعله يعمل أعمالاً قاسية؟»

«لا يمكن أن أسمح بمثل هذه الأمور، يا سِيدي؛ صدّقني، بل سوف أُعاقِب مَن يفعل ذلك من بينهم إذا وقع في يدي!» (خلال هذه المحادثة كلّها، كان صوت

السائق يصير أبطأ وأعذب وأعمق، أكثر شبهاً بالصوت الذي كان له حتماً وهو صبيٌّ صغير في القرية، وأقلّ شبهاً بالصوت الحادّ الخشن الذي تميّز به فقراء لندن آنذاك.)

«وإذا هجم الأعداء على هذا البلد (لأنّ الأعداء سيقومون) ووقعت حرب، فهل تكون أوّل من يتولّى الدفاع وآخِر مَن يتراجع؟»

فقال السائق على مهل: «حسناً، يا سيدي. لا يعرف الرجل حقيقة الأمر قبل أن يجرّب. وأستجرىء فأقول إنّني قد أكون رقيقاً وغير قاسٍ. فأنا لمْ أخُض معركةً ألا بقبضة يدي. سأُحاول - أعني أنّني أرجو أن أُحاول - القيام بواجبي».

و قال أصلان: «عندئذٍ تكون قد فعلت كلّ ما يجب على الملك أن يفعله. الآن سيتمّ تتويجك. وستكون أنت وأولادك وأحفادك مُباركين. ومِنهم مَن سيكونون ملوكاً على نارنيا، وآخرون ملوكاً على بلاد آرخيا الواقعة بعيداً هناك على الجبال الجنوبيّة. وأنتِ، أيّتها البنت الصغيرة، أهلاً بك وسهلاً (قال هذا ملتفتاً إلى پولي). هل سامحتِ الصبيّ على معاملته العنيفة لكِ في قاعة التماثيل في القصور المهدّمة في شارْن اللعينة؟»

فقالت پولي: «نعم، يا أصلان. لقد تصافَينا».

وقال أصلان: «هذا جيّد! والآن جاء دور الصبيّ نفسه».

الفصل الثاني عشر

أبو فريز يقوم بمغامرته

أبقى ديغوري فمه مُطبَقاً بشدّة، وكان الاضطراب قد استولى عليه بشكل متزايد. ومهما جرى، كان يرجو ألّا ينفجر باكياً أو يتصرّف أي تصرُّفٍ سخيف.

وقال أصلان: «يا ابن آدم، أأنت مستعدٌّ لإصلاح الإساءة التي ارتكبتَها بحقّ نارنيا، أرضي الجميلة، في يوم ولادتها؟»

فقال ديغوري: «حسناً، لا أعرف ماذا أقدر أن أعمل. فأنت ترى أنّ الملكة قد هربت و...»

فقال الأسد: «سألتُك: أأنت مستعدٌّ؟»

فقال ديغوري: «نعم!» وكانت قد خطرت في باله لحظةً فكرةٌ غريبة بأن يقول: «سأُحاول أن أساعدك إذا وعدتَني بأن تساعد أُمي». ولكنّه أدرك في الوقت المناسب أنّ الأسد ليس من أولئك الأشخاص الّذين يمكن للإنسان أن يعقد صفقاتٍ معهم. ولكنْ لمّا قال «نعم»، فكّر في أُمّه، وفكّرَ في الآمال الكبار التي كانت تملأ قلبه وكيف أخذت تتبخّر كلُّها، فاعترضت في حلقهِ غصّةٌ وترقرقت عيناه دمعاً، واندفع يقول:

«ولكنْ رجاءً، رجاءً! ألا يُمكِن، ألا تقدر أن تُعطيَني شيئاً يشفي أمّي؟» وكان حتّى ذلك الحين ينظر إلى قوائم الأسد الكبيرة بمخالبها الضخمة. أمّا الآن، ففي يأسه تطلّع إلى وجه الأسد. فما رآه كان أكثر شيء فاجأه في حياته كلها. إذ كان وجهُ الأسدِ الأسمرُ المُشرِقُ مُنحنياً قُرب وجه ديغوري، وكانت دموعٌ كبيرة لمّاعة (ويا لَلعجب العُجاب!) في عيني الأسد. كانت دموعاً كبيرة متألّقة جدًا، مقارنةً بدموع ديغوري، حتّى شعر لحظةً كما لو أنّ الأسد بالحقيقة أكثر حزناً منه على أمّه.

وقال أصلان: «بُنيّ، بُنيّ، أنا أعرف. الحزن عظيم. وأنا وأنت وحدنا في هذه الأرض نعرف ذلك. فلنُعامِل أحدُنا الآخر أحسن معاملة. ولكنْ يجب عليّ أن أفكّر في مئات السنين من عُمر نارنيا. فالساحرة التي جلبتَها إلى هذا العالم سوف ترجع إلى نارنيا مرّةً أخرى. لكن لم يأتِ وقتُها بعدُ. فرغبتي أن أزرع في نارنيا شجرة لن تستجرئ أن تقترب إليها، وتلك الشجرة ستحمي نارنيا منها سنينَ كثيرة. وهكذا تعيش هذه البلاد صباحاً مُشرقاً طويلاً قبل أن تُغطّي الشمسَ أيّةُ غيوم. إنّما عليك أن تأتيني بالبذرة التي منها ستطلع تلك الشجرة».

فقال ديغوري: «نعم، سيّدي». ولم يكن يعرف كيف يجب أن يتمّ الأمر، ولكنْ تأكّد له الآن أنّه سيكون قادراً على إتمامه. وسحب الأسد نَفَساً عميقاً، وحنى رأسه أكثر،

ثمّ قبّله قُبلةَ أسد. فشعر ديغوري في الحال أنّ قوّةً وشجاعة جديدتين فاضتا في داخله.

وقال أصلان: «يا بُنيَّ العزيز، سأقول لك ما يجب أن تعمله. التفت وتطلّعْ صوب الغرب، وقُل لي ماذا ترى؟»

فقال ديغوري: «أرى جبالاً كبيرة جداً، يا أصلان. وأرى نهراً ينحدر عن جُروف الصخر في شلّال. ووراء الجُرف الصخريّ تلال خضراء عالية فيها غابات. ووراء هذه سلاسلُ جبال أعلى تبدو سوداء تقريباً. ثمّ في البعيد البعيد جبال كبيرة تُغطّيها الثلوج، بعضُها فوق بعض، تُشبه صُوَر جبال الألب. أمّا وراءَها، فلا شيء إلّا الفضاء الأزرق».

فقال الأسد: «حسناً رأيت! إنّ أرض نارنيا تنتهي حيث ينحدر الشلّال، وما إن تصل إلى أعلى الصخور حتّى تخرج من نارنيا وتدخل الغابة الغربيّة. فعليك أن ترتحل عبر تلك الجبال حتّى تجد وادياً أخضر فيه بُحيرة زرقاء تُحيط بها جبال من الجليد. وعند طرف البُحيرة البعيد تلّةٌ خضراء شديدة الإنحدار. وعلى قمّة تلك التلّة بُستان. وفي وسط ذلك البُستان شجرة. فاقطف من تلك الشجرة تُفّاحة، وعُد بها إليّ».

فقال ديغوري أيضاً: «نعم، سيّدي». ولم تكُن لديه أدنى فكرة كيف يتسلّق الجُرف الصخريّ ويشقّ طريقه بين تلك الجبال كلّها، إلّا أنّه لم يحب أن يقول ذلك خوفاً من أن يبدو كأنّه يُقدّم أعذاراً. ولكنّه قال فعلاً: «أرجو، يا

أصلان، ألّا تكون مستعجلاً. فلن أتمكّن من الوصول إلى هناك والرجوع إلى هُنا بسرعة كبيرة».

فقال أصلان: «يا ابن آدم الصغير، ستحصل على مساعدة». ثمّ التفت إلى الحصان، وكان واقفاً بهدوء قُربهما طول الوقت، يُحرّك ذيله ليبعِد الذبّان، وهو يُصغي مائلاً برأسه إلى ناحية وكأنّه يجد صعوبةً في فهم الحديث بعض الشيء.

وقال أصلان للحصان: «يا عزيزي، أتحبُّ أن تصير حصاناً مُجنّحاً؟» ويا ليتك رأيت كيف نفَض الحصان عُرفه وكيف اتّسع منخراه، وسمعتَ النَّقرة الخفيفة التي بها ضرب الأرض بحافر إحدى قائمتيه الخلفيَّتين. فواضحٌ أنّه تمنّى كثيراً جدًّا لو يكون حصاناً مُجنّحاً. ولكنّ كل ما قاله هو:

«إذا كانت هذه رغبتك، يا أصلان - إذا قصدتَ هذا فعلاً - أنا لا أعرف لماذا أصير أنا مُجنّحاً - فأنا لستُ حصاناً ذكيّاً جدًّا».

فقال أصلان بصوتٍ كالرعد هزّ الأرض هزًّا: «كُن مجنّحاً. كُن أباً لجميع الأحصنة الطائرة! إسمك أبو الريش».

وخجل الحصان، كما كان يخجل في الأيّام التعسة الماضية لمّا كان يجرُّ عربة أُجرة، ثُمّ خرخر، وشدّ رقبته إلى الوراء كما لو كانت ذبابةٌ تلسع كتفيه فأراد أن يحكّهما. وعندئذٍ، مثلما طلعت البهائم وانطلقت من بطن

الأرض، انطلق من كتفَي أبي الريش جناحان انتشرا وكبرا، أكبر من أجنحة النسور، أكبر من أجنحة الوزّ، أكبر من أجنحة الملائكة على نوافذ الكنائس. ثمّ لمع ريش الجناحين باللون الكستنائيّ واللون النحاسيّ، ونفضهما الحصان نفضةً قويّة ثمّ قفز إلى الهواء. وعلى علوّ ستة أمتار تقريباً فوق أصلان وديغوري، راح الحصان يصهل ويشخر ويقفز قفزاً. وبعد أن دار حواليهما دورة واحدة، هبط على الأرض بحوافره الأربعة معاً، فيما بدا عليه الاضطراب والمفاجأة، إنّما مع أقصى السرور.

وسأله أصلان: «أهذا جيّد، يا أبا الريش؟»

فقال أبو الريش: «جيّد جدًّا، يا أصلان!»

«هل تحمل ابن آدم هذا الصغير على ظهرك إلى الجبال التي تحدّثتُ عنها؟»

فقال أبو فريز، أو أبو الريش كما يجب أن نُسمّيه الآن: «ماذا؟ الآن؟ حالاً؟ هُوراه! هيا يا صغير! طالما حملتُ على ظهري من قبل أشياءَ مثلك. من زمان طويل، لمّا كانت حقولُ خضراء، ولمّا كان سُكّر!»

وقال أصلان: «عَمَّ تتهامس ابنتا حوّاء؟» ملتفتاً فجأةً إلى پولي وزوجة السائق، اللتين بدأتا تتصادقان معاً.

فقالت الملكة هيلانة (لأنَّ هذا صار اسم نلّي زوجة سائق العربة): «لو سمحتَ، يا سيّدي! أعتقد أنَّ البنت الصغيرة تحبُّ أن تذهب أيضاً، إذا لم يكن هذا مزعجاً».

وسأل الأسد: «ماذا يقول أبو الريش عن هذا؟»

فقال أبو الريش: «أوه، لا يُزعجني أن أحمل اثنين، خصوصاً إذا كانا صغيرَين. ولكنْ أتمنّى ألّا ترغب الفيَلة أيضاً في الذهاب».

لم يكُن عند الفيَلة رغبةٌ في ذلك، وساعد ملك نارنيا الجديد كلا الولَدين على الركوب. فقد رفع ديغوري رفعةً، وأجلس پولي على ظهر الحصان بكلّ رفق ومُداراة، كأنّها مصنوعة من الخزف الصيني وقد تنكسر. ثمّ أضاف السائق قائلاً: «ها هُما يا أبا فريز - أبا الريش كما يجب أن أقول. وهذه رحلة صعبة!»

وقال أصلان للحصان: «لا تَطِر عالياً كثيراً. لا تحاول

أن تمرّ فوق قِمَم جبال الجليد العالية. فتّش عن الأودية والمساحات الخضراء وطِرْ فوقها. ستجد دائماً طريقاً بينها. والآن انطلِق مصحوباً ببَركتي».

وقال ديغوري: «أوه يا أبا الريش! هذا ممتع فعلاً. تمسّكي بي جيّداً، يا پولي»، مُنحنياً إلى الأمام ليَربّت رقبة الحصان اللّماعة.

وفي اللحظة التالية تباعدت الحقول تحتهما ودارت دوراناً فيما دار أبو الريش، كحمامة ضخمة، دورةً أو دورتين، قبل انطلاقه في رحلة طيرانه نحو الغرب. وحين نظرت پولي إلى تحت، بالكاد قدرت أن ترى الملك والملكة. حتّى أصلان نفسه ظهر كنقطة صفراء لمّاعة على العشب الأخضر. وسرعان ما هبّت الريح على وجهَيهما واستقرّ جناحا أبي الريش على خفقة ثابتة.

كانت نارنيا كلّها منبسطة تحتهما بألوانها المتعدّدة ومروجها وصخورها، ومختلف أشجارها وشُجيراتها، والنهر يتلوّى بينها كشريط من الزئبق.

وكانا يقدران أن يريا ما فوق قِمَم التلال المنخفضة الواقعة إلى يمينها نحو الشمال. ووراء هذه التلال بدا مستنقع كبير يمتدّ برفق متباعداً حتّى الأفق. أمّا إلى يسارِهما فكانت الجبال أعلى بكثير، ولكنْ من حين لآخر كانت تلوح فسحة بين غابات الصنوبر المتحدرة يمكنك أن ترى من خلالها لمحةً لأراضي الجنوب المُترامية وراءها والتي تبدو زرقاء وبعيدة جدًّا.

قالت پولي: «لا بدَّ أن تكون تلك بلاد آرخيا».

فقال ديغوري: «نعم، ولكنِ انظري إلى الأمام!»

ذلك أنَّه ارتفع أمامها الآن حاجز من الصخور، وكادا ينبهران من ضوء الشمس المتراقص على الشلّال الكبير الذي به ينصبُّ النهر هادراً ومتلألئاً على نارنيا بالذات، مندفعاً من الأراضي الغربيَّة العالية التي ينبع فيها. وصار الحصان يطير بهما عالياً جدًّا حتّى إنَّ هدير ذلك الشلّال ما كان يُسمَع إلّا كصوتٍ ضئيل رقيق، ولكنَّهما لم يكونا قد وصلا إلى ارتفاعٍ كافٍ للطيران فوق قِمَم الصخور.

وقال أبو الريش: «سنُضطرُّ إلى القيام ببعض التعرُّج هنا. تمسَّكا بي جيّداً!»

ثمَّ أخذ يطير ذهاباً وإياباً، مرتفعاً أكثر في كلّ جولة، حتّى صار الهواء أكثر برودة، وسمعا نداءات النسور تحتهما على مسافة بعيدة. وقالت پولي: «هيّا! انظر إلى الوراء! انظر إلى الخلف!»

عندئذٍ تمكّنا من أن يريا أرض نارنيا بكاملها تنبسط تحتهما إلى حيث تظهر لمحة واهية للبحر، قبل الأفق الشرقيّ تماماً. وكانا قد بلغا علوّاً شاهقاً حتّى استطاعا ان يريا جبالاً مسنَّنة مُنمنمة تظهر وراء المستنقعات الشماليَّة الغربيَّة، وسهولاً بدت مُنبَسطاتٍ رمليَّة في الجنوب بعيداً.

فقال ديغوري: «يا ليت أحداً كان معنا ليقول لنا ما هي هذه الأماكن كلُّها».

وقالت بولي: «لا أعتقد أنّها أماكن محدَّدة بعد. أعني أنّه لا أحد هناك، ولا شيء يجري فيها. إذ لم يبدأ العالم إلا اليوم!»

فقال ديغوري: «لا، ولكنَّ الناس سوف يصلون إلى هناك. وعندئذٍ سيكون لهم تاريخ، كما تعرفين».

قالت بولي: «حسناً، أمرٌ جيّد جدًّا أنْ ليس لهم تاريخ الآن. لأنّه لا يمكن إجبار أحدٍ على دراسته بكلّ ما فيه من معارك وتواريخ وكلام فارغ».

ثمَّ وصلا فوق رؤوس الصخور، وبعد دقائق قليلة غابت عن الأنظار وراءهما أرضُ نارنيا المنخفضة. وأخذ الحصان يطير بهما فوق أراضٍ بريّة من التلال المنحدرة والغابات الكثيفة، وهو ما زال يتبع مجرى النهر. ولاحت أمامهم الجبال الكبيرة فعلاً. ولكنَّ الشمس صارت الآن مقابل أعيُنهما، فلم يقدرا أن يريا الأشياء بوضوح في ذلك الاتّجاه. فقد كانت الشمس آخذةً بالنزول حتّى صار الأفق الغربيّ كلّه مثلَ فُرنٍ واحدٍ كبير مليء بالذهب المصهور، إلى أن غابت أخيراً وراء قمّة جبل مُسنَّن ظهرت مقابل الضوء الباهر حادّةً ومسطّحة كما لو كانت مصنوعةً من كرتون.

وقالت بولي: «الحرارة غير مرتفعة هُنا أبداً».

فقال أبو الريش: «وقد بدأ جناحاي يؤلمانني. لا أثر للوادي الذي فيه بُحيرة، كما قال أصلان. ما قولكما في الهبوط والتفتيش عن بقعة مناسبة لنبيت ليلتنا فيها؟ فإنّنا لن نصل إلى ذلك المكان الليلة».

وقال ديغوري: «نعم، وقد اقترب وقت العشاء بالتأكيد!»

ثمَّ أخذ أبو الريش ينزل إلى الأسفل شيئاً فشيئاً. ولمّا اقتربوا من الأرض أكثر، وصاروا بين التلال، صار الهواء أعلى حرارةً. وبعد السفر ساعاتٍ طويلة وهُما لا يُصغيان إلّا إلى خفق جناحَي أبي الريش، كان جميلاً أن يسمعا من جديد بعض أصوات الأرض المألوفة: خرير النهر في مجراه الصخريّ، وحفيف ورق الشجر من هبوب الريح الخفيفة. وارتفعت إليهما رائحة طيّبة دافئة صاعدة من الأرض التي لوّحتها الشمس، ومن العشب والزهر. ثمّ حطّ أبو الريش أخيراً، فترجّل ديغوري عن ظهره مسرعاً، وساعد بولي على النزول. وسُرَّ كلاهما بأن يمدّا أرجلهما المتشنّجة.

كان الوادي الذي هبطوا فيه وسط الجبال، حيث قامت حولهما مرتفعات مُغطاة بالثلج ظهر أحدُها أحمر كالورد مقابل انعكاسات الغروب.

وقال ديغوري: «أنا جوعان!»

فقال أبو الريش: «حسناً، كُل!» وهو يقضم ملء فمه عشباً. ثمّ رفع رأسه وهو ما زال يمضغ وأجزاءُ الحشيش تتدلّى من جانبَي فمه كالشوارب، وقال: «هيّا كلاكما. لا تستحيا. يوجَد كثير لنا جميعاً!»

فقال ديغوري: «ولكنّنا لا نقدر أن نأكل العشب».

وردّ أبو الريش، متكلّماً بفمه المحشوّ بالحشيش:

«همهم، حسناً - أحم - إذاً لا أعرف تماماً ماذا عليكما عمله. ما أطيب هذا الحشيش!»

فحدّق پولي وديغوري أحدهما إلى الآخر مرتعبَين.

وقال ديغوري: «حسناً، أعتقد حقاً أنّ أحداً ربمّا دبّر أمر طعامنا».

فقال أبو الريش: «أنا متأكّد أنّ أصلان كان يمكنه عمل هذا لو طلبتما منه».

وقالت پولي: «أما كان يعرف دون أن نطلب منه؟»

فقال الحصان (وفمه ما يزال ملآنًا): «أنا لا أشكّ في أنّه كان يعرف. ولكنّي أظن أنّه يُحِبُّ أن نطلب منه».

وسأل ديغوري: «تُرى، ماذا يجب أن نعمل؟»

فقال أبو الريش: «أنا واثق بأنيّ لا أعرف. إلاّ إذا جرّبتُما العشب. فعسى أن تحبّاه أكثر مما تظنّان».

فقالت پولي ضاربةً الأرض بقدمها: «أوه، لا تكن سخيفاً! فبالطبع لا يقدر البشر أن يأكلوا الحشيش كما لا تقدر أنت أن تأكل فرمة من لحم الخروف».

وقال ديغوري: «بحق السماء! لا تتكلّمي عن اللحم وما شابه. فإن من شأن ذلك أن يزيد الحالة سوءاً».

ثمّ اقترح ديغوري على پولي أنّ من الأفضل لها أن تعود إلى الديار بواسطة الخاتم، حيث يمكنهما الحصول على طعامٍ تأكله. أمّا هو فلا يقدر أن يفعل ذلك لأنّه وعد بتنفيذ المهمّة التي طلبها منه أصلان. وإذا عاد إلى الديار مرّة واحدة، فقد يمنعه أيُّ شيء أن يرجع إلى هنا.

ولكنّ پولي قالت إنّها لن تتركه، واعترف ديغوري بأنّ ذلك تصرُّف شريف من قِبَلها.

وقالت پولي: «وجدتُها! ما زال في سترتي بقايا من كيس الطُوفي ذاك. وهي أفضل من لا شيء».

فقال ديغوري: «أفضل بكثير! ولكنِ انتبهي أن تضعي يدك في جيبك بغير أن تلمسي خاتمكِ».

كان ذلك عملاً صعباً ودقيقاً، لكنّهما تمكّنا من القيام به في النهاية. ولمّا أخرجا كيس الورق الصغير أخيراً، وجداه مهروساً ودبِقاً، حتّى اضطُرّا إلى تمزيق الكيس عن حبّات الطوفي بدل إخراجها من الكيس. ولو كان بعض الراشدين مكانهم (أنت تعرف كم يمكن أن يكونوا متطلّبين يصعب إرضاؤهم في مثل هذه الحالة) لفضّلوا البقاء بلا عشاء كلياً على أكل حلوى الطوفي تلك. وعدّا الحبّات فوجداها تسعاً. وكان ديغوري مَن خطرت على باله فكرةٌ ذكيّة بأن يأكل كلٌّ واحدٍ منهما أربعاً ويزرعا التاسعة؛ لأنّه كما قال - «إذا كان القضيب المنزوع من عمود الإنارة تحول إلى شجرة إنارة صغيرة، فماذا يمنع أن تتحوّل حبّة الطوفي إلى شجرة طوفي؟» وهكذا حفرا حفرة صغيرة في التُربة وطمرا حبّة الطوفي. ثمّ أكلا الحبّات الباقية، جاعلَين إيّاها تدوم أطول وقت ممكن. وقد كانت وجبةً فقيرة، حتّى مع الورق الذي لم يقدرا إلاّ أن يأكلاه أيضاً.

ولمّا أنهى أبو الريش عشاءه الفاخر، تمدّد على الأرض. فاقترب الولدان وقعد كلٌّ منهما إلى جانبٍ من جانبيه مُتّكئاً على جسمه الدافىء. حتّى إذا غمر كُلًّا منهما بأحد جناحيه، كنكنا تماماً واستراحا ولمّا طلعت النجوم الفتيّة في ذلك العالم الجديد، تحادثا في كلّ شيء: كيف تمنّى ديغوري أن يعمل شيئاً لأجل أمّه، وكيف أُرسِل في هذه المهمّة بدلاً من ذلك. وكرّر أحدهما للآخر كلّ علامة بها يعرفان الأمكنة التي يفتّشان عنها: البحيرة الزرقاء والتلّة التي على قمّتها بستان.

وكان حديثهما قد بدأ يتباطأ لمّا غطغط النوم عليهما. وإذا ببولِي تجلس مستيقظةً تماماً وتقول: «سكوت!»

فأصغى كلٌّ واحدٍ بكامل انتباهه.

عندئذٍ قال ديغوري: «ربّما كان هذا الريحَ في الشجر فقط!» وقال أبو الريش: «أنا غير متأكّد من هذا! على

كلّ حال مهلاً! ها هو يعود من جديد. وحياةِ أصلان، إنّه شيءٌ ما فعلاً».

ثمّ هبّ الحصان واقفاً على قوائمه بضجيج قويّ ونهوض سريع. وكان الولدان قد سبقاه إلى الوقوف. وراح أبو الريش يركض ذهاباً وإياباً وهو يشخر ويصهل، فيما مشى الولدان على رؤوس أصابع أقدامهما إلى هنا وهناك، ناظرين وراء كلّ عُلّيقة وشجرة. وظلّا يتصوّران أنّهما رأيا أشياء. وتأكّدت بولِي مرّةً كلّ التأكد بأنّها رأت شبحاً أسود طويلاً ينسل بسرعة مبتعداً نحو الجهة الغربيّة. لكنّهم لم يعثروا على شيء. وأخيراً تمدّد أبو الريش من جديد، وعاد الولدان إلى الكنكنة (إن صحّ التعبير) تحت جناحيه، حيث ناما حالاً.

وظلّ أبو الريش مستيقظاً وقتاً أطول بكثير وهو يحرّك أُذنيه في كلّ اتّجاه وسط الظلمة، محُدِثاً بعض الأحيان رجفة بسيطة بجلده وكأنّ ذبابة حطّت عليه. إلّا أنّه في النهاية نام هو أيضاً.

الفصل الثالث عشر

لقاء غير مُتوقَّع

علا صوتُ پولي قائلاً: «استيقظ يا ديغوري، إستيقظ يا أبا الريش. لقد صارت شجرةَ طوفي، وهذا أروع صباحٍ أراه في الحياة».

كان ضوء الشمس المبكّر المنخفض يتدفّق من بين الأشجار، والعُشب أشيب بقطرات الندى، وبيوت العنكبوت كخيوط الفضّة. وبالقرب منهم تماماً شجرة خشبُها غامق جدًّا، بحجم شجرة تفّاح. وكانت أوراقها تميل إلى البياض وتُشبه ورق الكتابة، مثل العشبة المُسمّاة «أمانة»، وهي مُثقلة بفاكهة بُنّيّة صغيرة تُشبه البلح.

فقال ديغوري: «هُوراه! إنمّا سأغطس غطسة أوّلاً». واندفع وسط دغلة ذات أزهار نزولاً إلى ضفّة النهر. هل تحمّمتَ مرّةً في نهر جبليّ يتدفّق في شلّالات فوق حجارة حُمر وزرق وصُفر تتألّق تحت ضوء الشمس؟ إنّ ذلك مُنعش كالبحر، بل أفضل منه من بعض النواحي. طبعاً، كان عليه أن يعود فيلبس ثيابه دون أن يتنشّف، ولكن ذلك كان يستحقّ عناءه. ولمّا طلع، نزلت پولي واستحمّت

هي أيضاً. على الأقلّ، هذا ما قالته هي. لكنّنا نعرف أنّها ليست سبّاحة ماهرة، وربمّا كان أفضل لنا ألّا نسألها أسئلة كثيرة جدًّا. وقصد أبو الريش إلى النهر أيضاً، لكنّه وقف فقط وسط مجراه، حانياً رأسه ليشرب شربة طويلة، ثمّ هزّ عُرفه وصهل بضع مَرات.

وتوجّه پولي وديغوري ليقطفا من شجرة الطوفي. فكانت الفاكهة طيّبة، ليست مثل الطوفي تماماً، بل أنعم وأكثر ليونةً وعصارةً أيضاً، ولكنّها ثمار تُذكّر أكلها بالطوفي. وكذلك تناول أبو الريش أيضاً فطوراً ممتازاً. ذاق حبّة من ثمر الطوفي وأعجبته، لكنّه قال إنّه يرغب أكثر في أكل الحشيش في تلك الساعة من الصباح. ثمّ طلع الولدان على ظهره مع بعض الصعوبة، وابتدأت الرحلة الثانية.

وقد كانت الرحلة الجديدة أفضل من رحلة البارحة، وذلك لأن الجميع كانوا يشعرون بالانتعاش الكثير، وكذلك لأنّ الشمس التي أشرقت حديثاً كانت وراء ظهورهم، وكلّ شيء طبعاً يكون أحسن عندما يكون الضوء وراءك. فكانت جولة طيران رائعة. إذ ارتفعت الجبال الكبيرة المغطّاة بالثلوج حواليهم في كلّ اتجاه. وكانت الأودية تحتهم في البعيد، خضراء جدًّا، وجميع السواقي المتجمّدة يسيل منها إلى النهر الكبير ماءٌ شديدُ الزرقة، حتّى كأنّك تطير فوق قطع كبيرة جدًّا من الجواهر. وكان ممكناً أن يتمنّوا لو يستمرّ هذا الجزء من الرحلة فترة أطول. ولكنّهم سرعان ما أخذوا كلّهم يتشمّمون الهواء قائلين: «ما هذا؟»

و«هل شمَمْتُما شيئاً؟» و «من أين تأتي هذه الرائحة؟» ذلك أنَّ رائحة سماويّة، مُنعشة ومؤنسة ومُدهشة، كما لو أنّها تنبعث من جميع ما في العالم من أثمار وأزهار طيّبة، كانت آتيةً إليهم من مكانٍ ما أمامهم.

فقال أبو الريش: «الرائحة آتية من الوادي الذي فيه البُحيرة».

وقال ديغوري: «صحيح! وها هي تلّة خضراء عند طرف البحيرة الأبعد. ويا لشدة زرقة المياه!»

فقال الثلاثة: «لا بدّ أنّ هذا هو المكان!»

وأخذ أبو الريش يهبط إلى الأسفل شيئاً فشيئاً في دوائر واسعة، وصارت القمم الجليديّة تبعد فوقهم أعلى فأعلى. وكلَّ لحظةٍ هبَّ الهواء أكثر دفئاً وعذوبة، حتّى يكاد يُبكيك من الفرح. ثمّ صار أبو الريش ينزلق باسطاً جناحيه بلا حراك، وحوافره تتلمّس الأرض. وأخذت التلّة الخضراء المنحدرة تندفع نحوهم. وبعد لحظةٍ حطّ على سفحها بشيءٍ من الارتباك والاضطراب. فتشقلب الولدان عن ظهره وسقطا، بغير أن يتأذّيا، على العشب الناعم الدافىء، ثم وقفا يلهثان قليلاً.

كان عليهم أن يقطعوا ثلاثة أرباع الطريق بعد لبلوغ قِمّة التلّة، فباشروا ذلك في الحال. (لا أعتقد أنَّ أبا الريش كان يمكنه القيام بذلك لولا جناحاه اللذان وفّرا له التوازن وأعطياه دفعةً تساعده من حين إلى آخر). وكان حوالَي قِمّة التلّة سورٌ عالٍ من التربة الخضراء، وداخل السور أشجار كبيرة تتدلّى أغصانها خارجاً من فوق السور. وكلّما حرّكت الريح أوراق تلك الأشجار ظهرت زرقاء وفضّيّة، وليس فقط خضراء. ولمّا وصل المسافرون إلى القمّة، مشَوا حولها كلّها تقريباً خارج السور الأخضر قبل أن يجدوا الأبواب؛ وكانت أبواباً ذهبيّة عالية، مُقفلة بإحكام، مواجهة للشرق تماماً.

حتّى الآن، أعتقد أنَّ أبا الريش و بولي كانا يحسبان أنّهما سيدخلان مع ديغوري. لكنّهما لم يعودا يحسبان ذلك بعد. فلا يمكن أن ترى مكاناً يتميّز بالخصوصيّة

بمثل هذا الوضوح. إذ كان يمكنك أن تتأكد بلمحة واحدة أنّه يخصّ شخصاً آخر. والمجنون وحده يحلم بالدخول إلى هناك إلّا إذا كان مبعوثاً في مهمّة خاصّة جدًّا. ففهم ديغوري في الحال أن الآخرَين لن يدخلا معه ولا يقدران أن يدخلا. فتقدّم إلى الأبواب وحده.

ولمّا اقترب من الأبواب، رأى كلاماً مكتوباً بحروف فضيّة على لوحٍ من الذهب، يقول ما معناه:

أدخل من أبواب الذهب، وإلّا فلا،
خُذ من ثماري للغير، وإلّا فعُد فارغَ اليدين؛
لأنّ مَن يسرقون، أو أسواري يتسلّقون،
ينالون مُنية قلوبهم، لكنّهم يخيبون!

«خُذ من ثماري للغير»، قالها ديغوري لنفسه. وأضاف: «حسناً، هذا هو ما سأعمله. أعتقد أنّ الكلام يعني أنّه يجب عليّ أنا ألّا آكل من الثمار. لا أفهم مغزى العبارة الغامضة في السطر الأخير. 'أدخل من أبواب الذهب!' طيّب، فمَن يرغب في تسلّق حائط كبير إذا قدر أن يدخل من باب؟ ولكنْ كيف تنفتح الأبواب؟» وما إن وضع يده على الأبواب حتّى انفتحت على وسعها نحو الداخل، دائرةً على مُفصّلاتها دون أيّ ضجّة.

ولمّا نظر إلى داخل المكان، قدر أن يتأكّد أنّه يبدو خصوصيّاً أكثر من ذي قبل. فدخل بكلّ احترام، متلفّتاً

حواليه. وكان كلّ شيء هادئاً تماماً في الداخل. حتى النافورة التي كانت بقرب وسط البُستان لم تصدر إلا صوتاً خافتاً. وفاحت حواليه الرائحة الطيّبة، جاعلةً المكان سعيداً لكنْ خطيراً جدًّا.

وفي الحال عرف أيّةُ شجرة هي المطلوبة، لأسباب منها أنّها كانت وسط البستان تماماً، ومنها أنّ التُفّاح الفضّي الكبير الذي كانت محمّلة به تلألأ بنور مشرق جدًّا ترامت أشِعّته الفريدة على الأماكن التي تغمرها الظلال ولا يصل إليها ضوء الشمس. فمشى رأساً إلى الشجرة، وقطف تُفّاحة، ووضعها في جيب سترته الداخليّ الأعلى. لكنّه لم يقدر أن يُقاوِم النظر إليها وشمّها قبل أن يدسّها في جيبه.

وكان أفضلَ له لو لم يفعل ذلك. فإنّ عطشاً وجوعاً شديدين اجتاحاه، وتلهّف أن يذوق الثمرة. دسّها في جيبه على عجل، ولكنْ كان هنالك كثير غيرها. أيكون خطأً أن يذوق واحدة؟ وبعدُ، فإنّ المكتوب على الباب، كما فكّر، لم يكن أمراً بكل معنى الكلمة، وربّما كان مجرّد نصيحة؛ ومَن يعنيه قبول النصيحة؟ أو حتّى لو كان أمراً صريحاً، فهل يُخالفه إذا أكل تُفّاحة واحدة؟ وها هو قد أطاع القول المختصّ بأخذ واحدة «للغير»!

وبينما هو يفكّر في هذا كلّه، تطلّع بالصدفة إلى رأس الشجرة من خلال أغصانها. فإذا على غصنٍ فوق رأسه طيرٌ عجيب جاثم. وأقول «جاثم» لأنّه بدا نائماً تقريباً،



وربما ليس تماماً. فإنَّ إحدى عينيه كانت مفتوحة في شِقٍّ صغير جدًّا. وكان أكبر من النسر، وصدره بُرتقاليُّ اللون، ورأسه مُتوَّج باللون القرمزيّ، وذنَبه أُرجوانيّ.

وكما قال ديغوري في ما بعد وهو يحكي الخبر للآخرين: «إنَّما يُبيِّن هذا أنَّ الحرص واجبٌ جدًّا في هذه الأماكن السحريَّة. فأنت لا تعرف أبداً ما قد يكون هناك ليراقبك». ولكنَّني أعتقد أن ديغوري لم يكُن ليأخذ تُفَّاحة لنفسه على كلِّ حال. فالوصايا مثل «لا تسرق»، كما أظنّ، كانت مغروسة في رؤوس الأولاد تلك الأيّام بشكل أقوى إلى حدٍّ بعيد مِمَّا هي عليه اليوم. ومع ذلك، فلا يمكننا أن نتأكَّد تأكُّداً قاطعاً بشأن ذلك.

وإذ همَّ ديغوري بأن يُدير ظهره ليرجع إلى الأبواب، توقَّف ليُلقي نظرة أخيرة حواليه. فصُدِم صدمةً قويةً. ذلك أنّه هناك، على بُعد بضعة أمتار فقط، كانت الساحرة واقفة! وكانت ترمي قلب تُفّاحة فرغت من أكلها للتوّ. وقد كان عصير التفّاحة أغمق مِمّا تتوقّع عادةً، وصبغ ما حول فمها بلطخة بشعة. فحزر ديغوري فوراً أنّها لا بدّ أن تكون قد تسلّقت السور ودخلت من فوقه. وبدأ يفهم أنّه قد يكون للسطر الأخير معنىً ما، حيث ذكر الحصول على مُنية القلب ومعها الخيبة. فإنَّ الساحرة ظهرت أقوى وأكثر تكبُّراً من ذي قبل، بل أيضاً أكثر انتصاراً بطريقةٍ ما، ولكنَّ وجهها كان شاحباً شحوب الموت، أبيض مثل الملح.

خطر ذلك كلّه بسرعة في ذهن ديغوري بسرعة كلمح البصر، ثم أطلق ساقيه للريح وركض صوب الأبواب مندفعاً بأقصى سرعة يقدر عليها، والساحرة تجري وراءه. وما إن خرج، حتّى انغلقت الأبواب وراءه من تلقاء ذاتها. فوفّر ذلك له التقدُّم، ولكن ليس وقتاً طويلاً. فحين وصل إلى رفيقيه وأخذ يصرخ: «بسرعة! هيا يا بولي! قُم يا أبا الريش»، كانت الساحرة قد تسلّقت السور، أو قفزت من فوقه قفزاً، وصارت وراءه تماماً من جديد.

فالتفت ديغوري وواجهها قائلاً: «ابقَي في مكانك، وإلّا اختفينا جميعاً. لا تقتربي ولو سنتيمتراً واحداً!»

فقالت الساحرة: «يا صبيًّا مجنوناً! لماذا هربتَ منّي؟ لا أُريد أن أؤذيك. فإن لم تقفِ الآن وتُصغِ إليّ، تفوتك معرفة شيءٍ يجعلك سعيداً طول عمرك».

قال ديغوري: «أنا لا أُريد أن أسمع ذلك، شكراً!» ولكنّه سمع ما تابعت تقوله:

«أنا أعرف المهمّة التي جئتَ تقوم بها هنا. فأنا مَن كان على مقربة منكم في الغابةِ البارحةَ وسمع كلَّ مشاوراتكم. لقد قطفتَ ثمرةً من ذلك البستان هناك. وها هي في جيبك الآن. ولسوف تعود بها إلى الأسد، حتّى يأكلها هو ويستفيد منها هو. يا أبله! أتعرف ما هي تلك الثمرة؟ سأقول لك. إنّها تفّاحة الشباب، تُفّاحة الحياة. وأنا أعرف هذا لأنّني ذقتُها، وها أنا أشعر بتحوُّلات في داخلي تؤكّد لي أنّني لن أهرم ولن أموت. كُلْها، يا صبيّ، كُلها؛ فنعيش

أنا وأنت كلانا إلى الأبد، ونكون ملكاً وملكة على هذا العالم كلّه ـ أو على عالمكم، إن قرّرنا أن نرجع إلى هناك».

فقال ديغوري: «كلا! شُكراً. لا أعتقد أنّي أهتمُّ بأن أعيش على الدوام بعد أن يموت كلُّ من أعرفهم، بل أُفضّل بالأحرى أن أعيش عمراً طبيعيّاً ثمّ أموت وأذهب إلى السماء».

«ولكنْ ماذا عن أُمّك تلك التي تتظاهر بأنّك تحبُّها كثيراً؟»

قال ديغوري: «وما دخلها في هذا؟»

«ألا تفهم، يا غبيّ، أنّ قضمة من تلك التفّاحة ستشفيها؟ وها هي في جيبك. ونحن هنا وحدنا، والأسد بعيد جدًّا. فاستعمل سحرك وارجع إلى عالمك. وبعد دقيقة يمكنك أن تكون بجانب سرير أُمّك، فتعطيها الثمرة. ثمّ بعد خمس دقائق ترى اللون يعود إلى وجهها. وستقول لك إنّ الألم قد زال. وسرعان ما تقول لك إنّها تشعر بأنّها أكثر قوّة. ثمّ تنام نوماً عميقاً - فكّر في ذلك: ساعات طويلة من النوم الطبيعيّ، بلا ألم ولا وجع ولا دواء. وفي اليوم التالي سيتحدّث الجميع عن شفائها العجيب. وسريعاً ستعود إليها الصحّة التامّة. وسيكون كلّ شيء بخير من جديد، ويرجع بيتك سعيداً، وتكون مثل باقي الأولاد».

فقال ديغوري لاهثاً: «آه!» وكأنه قد تأذّى، ثمّ وضع يده على رأسه، إذ عرف أنّ أمامه أصعب اختيار.

وقالت الساحرة: «ماذا عمل الأسد لك حتّى تصير له عبداً؟ وماذا يقدر أن يعمل لك بعد أن تعود إلى عالمك؟ وبماذا تفكّر أمّك لو عرفت أنّك كنت قادراً على إزالة ألمها وإعادتها إلى الحياة وإنقاذ قلب أبيك من الانفطار، ومع ذلك لم تفعل شيئاً، بل فضّلت أن تكون مرسالاً لحيوان بريّ في عالمٍ غريب لا شأنَ لك فيه؟»

فقال ديغوري بصوتٍ كصوت من جفّ ريقه: «أنا لا أعتقد أنّه حيوان بريّ. فإنّه... لا أعرف...»

وقالت الساحرة: «إذاً هو شيءٌ أسوأ. ففكّر في ما قد عمله بك حتّى الآن؛ وفكّر في كيف جعلك قاسي القلب. ذلك هو ما يفعله بكلّ من يسمع له. يا صبيّاً قاسياً عديم الشفقة! إنّك تفضّل أن تترك أمّك تموت على أن...»

فقال ديغوري المسكين، بذلك الصوت عينه: «أطبقي فمكِ! أتعتقدين أنّي لا أفهم؟ ولكنّي قد وعدتُ...»

«آهٍ، ولكنّك ما كنتَ تعرف بماذا وعدتَ. ولا أحد هنا يقدر أن يمنعك».

فقال ديغوري، محاولاً إخراج الكلمات بصعوبة: «أمّي بالذات لم تكن لتحبّ ذلك، وهي تشدّد على الوفاء بالوعود، وعدم السرقة، وكلّ ما يشبه هذا. ولو كانت هنا لمنعتني من عدم الوفاء بوعودي بأسرع ما يمكنها!»

فقالت الساحرة، وهي تتكلّم بأعذبَ ممّا كنتَ تظنّ أنّ أحداً بمثل وجهها القبيح يقدر أن يتكلّم هكذا: «ولكنْ لا

داعيَ لأنْ تعرف بالأمر. فأنت لن تقول لها كيف أحضرتَ التفّاحة. ولا داعيَ أيضاً لأنْ يعرف أبوك. كما لا داعيَ لأنْ يعرف أحدٌ في عالمكم أيَّ شيء عن هذه القصّة كلّها. وليس ضرورياً أن تأخذ البنت الصغيرة معك في طريق العودة، كما تعلم».

هنا ارتكبتِ الساحرة غلطتها الرهيبة. طبعاً، كان ديغوري يعرف أنّ پولي تقدر أن تهرب بواسطة خاتمها الخاصّ بمثل السهولة التي بها يقدر هو أن يهرب بواسطة خاتمه. ولكن يبدو أن الساحرة لم تكن تعرف ذلك. ثمّ إنّ دناءة الاقتراح بأن يترك پولي وحدها جعلته فجأةً لا يرى في كلّ ما كانت تقوله إلّا الزّور والكلام الفارغ. وهكذا، ففي وسط شقائه الرهيب، صار رأسه صافياً تماماً بشكل مفاجىء، وقال (بصوتٍ مختلف وأقوى كثيراً):

«اسمعيني! ما دخلُكِ أنتِ في هذا كلّه؟ ولماذا صرتِ فجأةً تحبين أمي وتهتمين بأمرها؟ وما علاقة ذلك بكِ أنتِ؟ ما هي لعبتك؟»

فهمست پولي في أذنه: «أحسنتَ، يا ديغوري! هيّا! لنهرُب الآن». ولم تكُن قد تجرّأت أن تقول كلمة واحدة خلال الحديث كلّه، لأنّه - كما تعلم - لم تكُن أمُّها هي المُحتضرة.

فقال ديغوري: «إذاً هيّا!» رافعاً إيّاها إلى ظهر أبي الريش ثُمّ قفز وراءها بأسرع ما يمكنه. ونشر الحصان جناحيه.

ونادتِ الساحرة قائلة: «اذهبا إذاً، يا غبيّان! فكِّرْ بي، يا صبيّ، عندما تستلقي على فراشك شيخاً ضعيفاً مُحتضراً، وتذكَّر كيف تخلّيت عن فرصة الحصول على الشباب الأبديّ! فهي لن تسنَح لك مرّةً أُخرى».

وكانا قد صارا على ارتفاع لم يعودا فيه يسمعانها. وهي أيضاً لم تُضيّع أيّ وقت في التحديق عالياً إليهما، ثمّ شاهداها تنطلق نحو الشمال نازلةً على مُنحدَر التلّة.

كانوا قد انطلقوا باكراً صباح ذلك اليوم، وما جرى في البستان لم يستغرق وقتاً طويلاً، فقال أبو الريش وبولي كلاهما إنّهم يقدرون أن يرجعوا بسهولة إلى نارنيا قبل هبوط الليل. ولم يتفوّه ديغوري بكلمة واحدة في رحلة العودة، وكان الأخران خجلَين أن يُحدّثاه. فقد كان حزيناً جدًّا، بل إنّه لم يكن متأكّداً أيضاً طوال الوقت أنّه تصرَّف التصرُّف الصحيح. ولكنّه لمّا تذكَّر الدموع البرّاقة في عينَي أصلان، غمره اليقين الأكيد.

طار أبو الريش طول النهار طيراناً ثابتاً بجناحين لا يتعبان، متّجهاً نحو الشرق والنهرُ يهديه، بين الجبال وفوق التلال المغطّاة بالشجر البرّيّ، ثُمّ فوق الشلّال الكبير فنزولاً ونزولاً، إلى حيث كانت غابات نارنيا مُعتمة تحت ظلّ الجُرف الصخريّ العالي، حتّى إذا أخذ الأفق أخيراً يتخذ لون الغروب الأحمر وراءه رأى مكاناً على ضفّة النهر تجمّعت فيه مخلوقات كثيرة معاً. وسرعان ما استطاع أن يرى أصلان نفسه في الوسط. فانزلق هبوطاً، ومدّ قوائمه

الأربع، وطوى جناحيه، وحطّ مُهَروِلاً، ثمّ توقّف. فترجّل الولدان. وشاهد ديغوري جميع الحيوانات والأقزام والساطيرات والحوريّات، وسائر المخلوقات، تتراجع إلى اليمين والشمال لتفسح له في المجال. فتقدّم إلى أصلان، وناوله التفّاحة، وقال: «لقد أحضرتُ لك التفّاحة التي أردتها، يا سيّد!»

الفصل الرابع عشر

زرع الشجرة

حينئذٍ تكلّم أصلان بصوتٍ جعل الأرض تهتزّ، فقال: «أحسنت!» وعندئذٍ عرف ديغوري أنّ أهل نارنيا كلّهم قد سمعوا هذه الكلمة، وأنّ قصّة تلك المغامرة سوف يحكيها الآباء للأبناء في ذلك العالم الجديد على مدى مئات السنين، وربّما إلى الأبد. ولكنْ لم يكن من سبيل لأن تلعب الكبرياء برأسه، لأنّه لم يفكّر في المغامرة قطّ ما دام قد وقف في حضرة أصلان وجهاً لوجه. وتبيّن الآن أنّه يقدر ان ينظر إلى عينَي الأسد مباشرةً. لهذا نسي متاعبه ومصاعبه، وشعر بالسرور الشامل.

فعاد الأسد يقول: «أحسنتَ، يا ابن آدم. فمن أجل هذه الثمرة جعتَ وعطشت وبكيت. لا يد إلّا يدك ستزرع بذرة هذه الشجرة التي ستوفّر الحماية لنارنيا. فارمِ التفّاحة صوب ضفّة النهر حيث التُربة ليّنة».

وعمل ديغوري كما قال له اصلان. وكان الجميع قد سكتوا تماماً بحيث كان يمكنك أن تسمع الخبطة اللطيفة الصادرة عن وقوع التفّاحة في داخل الأرض الطينية.

فقال أصلان: «رمية جيدة! فلنتقدّمِ الآن إلى تتويج فرانك ملك نارنيا وملكته هيلانة».

عندئذٍ لاحظ الولدان هذين الاثنين أوّل مرّة. وكانا لابسَين ثياباً غريبة وجميلة، وقد تهدّل من على اكتافهما رُوبان فاخران تدلّيا خلفهما الى حيثُ أمسك أربعة أقزام بذيل رُوب الملك وأربع حوريّات نهريّات بذيل رُوب الملكة. وكان رأساهما عاريين، ولكنّ هيلانة كانت قد أرخت شعرها فجمّل ذلك منظرها كثيراً. ولكنّ ما جعلهما يبدوان مختلفين تماماً عمّا كانا قبلاً لم يكن شعرهما ولا ثيابهما. فقد ظهرت على وجهيهما ملامح جديدة، وخصوصاً على وجه الملك. وكلّ ما كان قد كسبه من دهاء وذكاء ورغبة في الخصام، لمّا كان سائق عربة في لندن بدا أنّه زال عنه، وصار أسهل أن ترى الشجاعة واللطف اللذين طالما تمتّع بهما دائماً. ولعلّ هواء العالم الفتيّ، أو محادثة أصلان، أو كليهما معاً، هو الذي أجرى هذا التغيير.

وهمس أبو الريش في أذن پولي: «بشرفي، إنّ سيّدي القديم قد تغيّر كما تغيّرتُ أنا تقريباً. عجباً! إنّه الآن سيّدٌ حقيقيّ!»

فقالت پولي: «نعم، ولكنْ لا تُحمحِم هكذا في أُذني. فهذا يُدغدِغني!»

ثمّ قال أصلان: «والآن ليحلّ بعضٌ منكم تلك الشّربوكة التي عملتموها بتلك الأشجار، ولنرَ ماذا نجد هناك!»

عندئذٍ شاهد ديغوري أنّه حيث كانت أربع أشجار نامية بعضُها بلزق بعضها بقربٍ بعض تمّ شبْك جميع أغصانها معاً، أو ربطُها، بقضبان الشجر الطريّة، بحيث كوّنت ما يُشبِه قفصاً كبيراً. ثُمّ تقدّم الفيلان بخرطوميهما وبضعةُ أقزامٍ بفؤوسهم الصغيرة، وحلّوا الشّربوكة بسرعة. فإذا في الداخل ثلاثة أشياء. وكان أحدها شجرة فتيّة بدا أنّها مصنوعة من الذهب؛ والآخر شجرة فتيّة بدا أنها مصنوعة من الفضّة. أمّا الثالث فكان شيئاً بئساً يلبس ثياباً ملطّخة بالوحل، قاعداً بين الشجرتين مُكوّماً على نفسه.

فهمس ديغوري: «ويلاه! الخال أندرو!»

وحتّى نشرح هذا كلّه، يجب أن نعود إلى الوراء قليلاً. فأنت تتذكّر أنّ البهائم حاولت غرْس الخال أندرو وسَقْيه. ولمّا أعاد الماءُ رُشده إليه، وجد نفسه مُبلّلاً بالماء كثيراً، ومطموراً حتّى فخذَيه بالتراب (الذي سرعان ما تحوّل إلى وحل)، تحيط به حيوانات بريّة أكثر ممّا حلم به في حياته من قبل. ولهذا، فربّما كان من غير المفاجىء أنّه بدأ يزعق ويُولول. وكان هذا مُفيداً بطريقةٍ ما، لأنّه أقنع الجميع أخيراً (حتّى الخنزير البرّيّ) بأنّه كائن حيّ. وهكذا نبشوا حوله وأخرجوه (وكان بنطلونه في حالةٍ مزرية فعلاً). وحالما تحرّرت رجلاه، حاول أن يهرب، ولكنّ لفّة سريعة من خرطوم الفيل حول خصره سرعان ما وضعت حدّاً لمحاولته. ورأى الجميع إذ ذاك أنّه يجب أن يُحفَظ سالماً حتّى يتّسع وقت أصلان ليأتي ويراه ويقول ما يجب أن

يُعمَل به. فصنعوا حواليه ما يُشبه القفص أو القُنّ. ثمّ قدّموا له كلّ ما استطاعوا التفكير فيه حتّى يأكل.

فجمع الحمار أكداساً من الشوك، ثُمّ رماها إليه. ولكنّ الخال أندرو لم يبدُ مهتمّاً بها. وأمطرته السناجب بوابل من



الجوز، إلّا أنّه اكتفى بتغطية رأسه بيديه حتّى لا يُصاب. وطارت بضعة عصافير باجتهاد ذهاباً وإياباً، مُسقطةً عليه ديداناً. وأبدى الدبُّ له لطفاً مُميّزاً. فإنّه بعد الظهر وجد قفير نحل بريّاً، وبدل أن يأكله هو (الأمرُ الذي يحبّ كثيراً أن يفعله) عاد به الى الخال أندرو. هذا التصرّف الشهم من

هذا المخلوق كان أسوأ خيبة للخال أندرو. فقد قذف الدبُّ الكتلة المدبَّقة كلَّها على سطح القفص، ومن سوء الحظِّ أنّها سقطت على الخال أندرو وصفعته على وجهه (ولم تكن كلُّ النحلات قد ماتت). ولمّا كان الدبُّ لا يهمُّه أن يُضرَب وجهه بقرصٍ من العسل، فلم يقدر ان يفهم لماذا ترنَّح الخال أندرو وسقط وقعد. وكان من سوء حظه الشديد أيضاً أنّه قعد على كومة الشوك. أمّا الخنزير البرّيُّ فقال: «على كلّ حال، دخلَت فمَ المخلوق كميّةٌ كبيرة من العسل، ولا بدَّ أن تنفعه قليلاً!» وبالحقيقة أنّ الحيوانات كانت قد بدأت تُعجَب كثيراً بأليفها الغريب، فتمنّت لو يسمح لها أصلان بأن تحتفظ به. وكانت الأذكى بينها قد تأكّدت آنذاك أنّ بعض الأصوات الخارجة من فمه على الأقلّ كان لها معنى. وقد سمّته الحيوانات «نبيذاً» لأنّه كثيراً ما ردّد هذه الكلمة.

ولكنّ أخيراً كان يجب أن تُبقيه الحيوانات هناك ليبيت ليلته. فقد كان أصلان مشغولاً طول النهار بإصدار التوجيهات إلى الملك والملكة الجديدين، وبإنجاز أمور أخرى مهمّة، ولم يقدر أن يتولّى أمر «نبيذِ العجوز المسكين». لكنّ الخال أندرو، بما أُلقي إليه من جوز وإجّاص وتُفّاح وموز، دبّر أمر عشائه. ولكنّ ليس من الإنصاف أن نقول إنّه قضى ليلة هانئة.

ولمّا قال أصلان: «هاتوا ذلك المخلوق!» رفع أحد الفيلَين الخال أندرو بخرطومه وأنزله عند قدمي الأسد، وقد أقعده الخوف عن الحركة.

وقالت پولي: «رجاءً، يا أصلان! هلّا تقول شيئاً يُهدّىء خوفه! ثُمّ هلّا تقول شيئاً لمنعه من الرجوع إلى هُنا ثانيةً!»

فقال أصلان: «وهل تعتقدين أنّه يرغب في الرجوع؟»

قالت پولي: «حسناً، يا أصلان، قد يَبعث شخصاً آخر. إنّه متحمّس كثيراً بعدما طلع قضيبُ عمود الإنارة شجرةَ عمود إنارة، وهو يفكّر...»

فقال أصلان: «يفكّر في حماقة كبيرة، يا صغيرتي! فهذا العالم يتفجّر حياةً هذه الأيام القليلة لأنّ الأغنية التي بها دعوتُه إلى الوجود ما زالت تتردّد في الهواء وتهدر في الأرض. ولن تستمر الحالة على هذه الصورة وقتاً طويلاً. ولكنّ لا يمكنني أن أقول ذلك لهذا الخاطي العجوز، ولا يمكن أيضاً أن أُشجّعه. فهو قد جعل نفسه غير قادر على سماع صوتي. وإذا تكلّمتُ إليه، فلن يسمع إلّا الزمجرة أو الزئير. آه منكم يا بني آدم، ما أمهركم في إبعاد أنفسكم عن كلّ ما يمكن أن ينفعكم! ولكنّني سأعطيه العطيّة الوحيدة التي ما زال قادراً على أخذها».

ثمّ حنى رأسه الكبير بحزنٍ ظاهر، ونفخ في وجه الساحر المرتعب قائلاً: «نَمْ! نَمْ وانفصِل بضع ساعات عن جميع العذابات التي جلبتَها على نفسك». وفي الحال استلقى الخال أندرو، وعيناه مغمضتان، وأخذ يتنفّس بهدوء.

وقال أصلان: «احملوه ومَدّدوه جانباً. والآن، يا أقزام، أروني براعتكم في الاشتغال بالمعادن. لأشاهدَكم وأنتم تصنعون تاجَين لملككم وملكتكم!»

فاندفع نحو الشجرة الذهبيّة عددٌ من الأقزام أكبر من أن تحلم به. ونزعوا عنها كلَّ ورقها، كما شلحوا بعض أغصانها أيضاً، بسرعةٍ فائقة. عندئذٍ أدرك الولدان أنَّ الشجرة كانت بالفعل من الذهب الطريّ الحقيقيّ، وليست ذهبيّة اللون فقط. وكانت قد طلعت بالحقيقة من قِطع النقد الذهبيّة الصغيرة التي سقطت من جيب الخال أندرو لمّا أُوقف مقلوباً، كما أنَّ شجرة الفضّة طلعت من قطع النقد الفضيّة. ومن لا مكان، كما ظهر، أُحضِرت كوَم من الأغصان اليابسة للوَقود، وسندانٌ صغير، ومطارق وملاقط ومنافخ. وفي اللحظة التالية (كم كان هؤلاء الأقزام يحبّون عملهم!) أخذت النار تتأجّج، والمنافخ تهدر، والذهب يذوب، والمطارق تُدَقدِق. ثمّ جاء خُلدان، كان أصلان قد كلّفهما أن يحفرا (وهذا ما يحبّان عمله أكثر من أي شيء آخر) في وقت سابق من ذلك النهار، وألقيا كومة من الحجارة الكريمة عند أقدام الأقزام. وبفضل الأصابع الماهرة في أيدي أولئك الصاغة الصغار بدأ تاجان يتشكّلان، ليسا كالتيجان الثقيلة البشعة المستعملة في أوروبا الآن، بل دائرتان خفيفتان رقيقتان جميلتا الشكل يمكنك أن تلبس إحداهما فعلاً فيصير منظرك أجمل. وقد رصّعوا تاج الملك بالياقوت، وتاج الملكة بالزمرُّد.

وعندما تمّ تبريد التاجين بماء النهر، طلب أصلان من فرانك وهيلانة أن يركعا قُدّامه، ووضع التاجين



على رأسيهما. ثمّ قال: «إنهضا يا ملك نارنيا وملكتها، يا أبوَي ملوك كثيرين سيقومون في نارنيا وجُزُر بلاد آرخيا. كونا عادلين ورحيمين وشجاعين. ولتحل عليكما البَركة!»

عندئذٍ أطلق الجميع هُتافاً أو نباحاً أو صهيلاً أو تغريداً أو تصفيق أجنحة، فيما وقف الزوجان الملكيّان، يبدو عليهما الوقار وشيء من الحياء، إلاّ أنّهما ظهرا أكثر نُبلاً بسبب حيائهما. وبينما كان ديغوري ما يزال يهتف، سمع صوت أصلان العميق بجانبه قائلاً:

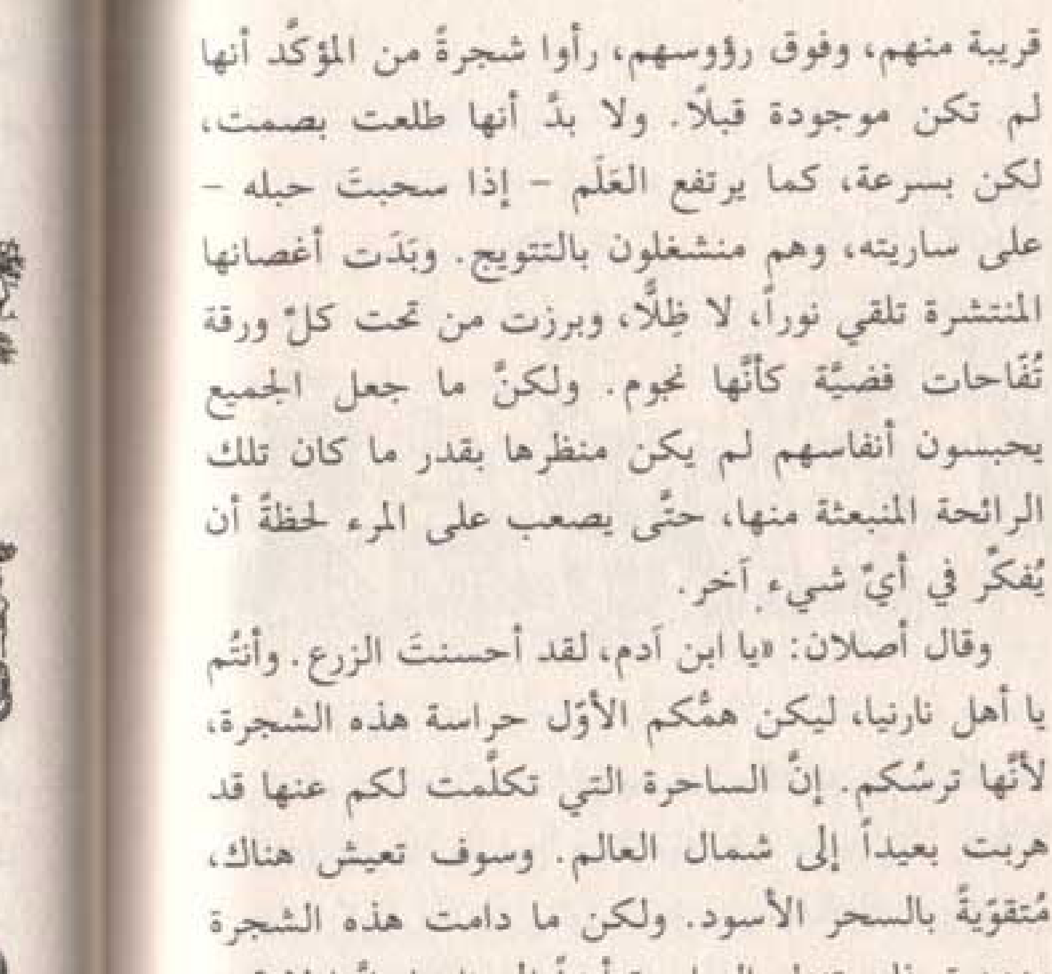
«انظُروا!»

وأدار كلُّ مَن في ذلك الحشد رأسه، فسحب كلٌّ نَفَساً طويلاً من التعجُّب والابتهاج. فعلى مسافة

قريبة منهم، وفوق رؤوسهم، رأوا شجرةً من المؤكَّد أنها لم تكن موجودة قبلاً. ولا بدَّ أنها طلعت بصمت، لكن بسرعة، كما يرتفع العَلَم - إذا سحبتَ حبله - على ساريته، وهم منشغلون بالتتويج. وبَدَت أغصانها المنتشرة تلقي نوراً، لا ظِلّاً، وبرزت من تحت كلِّ ورقة تُفّاحات فضيّةٌ كأنّها نجوم. ولكنَّ ما جعل الجميع يحبسون أنفاسهم لم يكن منظرها بقدر ما كان تلك الرائحة المنبعثة منها، حتّى يصعب على المرء لحظةً أن يُفكِّر في أيِّ شيءٍ آخر.

وقال أصلان: «يا ابن آدم، لقد أحسنتَ الزرع. وأنتُم يا أهل نارنيا، ليكن همُّكم الأوّل حراسة هذه الشجرة، لأنّها ترسُكم. إنَّ الساحرة التي تكلّمت لكم عنها قد هربت بعيداً إلى شمال العالم. وسوف تعيش هناك، مُتقوّيةً بالسحر الأسود. ولكن ما دامت هذه الشجرة مزدهرة، فلن تنزل الساحرة أبداً إلى نارنيا. إنّها لا تجرؤ على الاقتراب من الشجرة ضمن دائرة شعاعُها مئة وستُّون كيلومتراً، لأنَّ رائحة الشجرة، التي هي لكم فرح وحياة وصحّة، هي لها موت ورُعب ويأس».

وبينما كان الجميع يُحدِّقون إلى الشجرة بإكبار ووقار، إذ أمال أصلان رأسه فجأةً (ناشراً أشعّةً ذهبيّةً من نور انبعث من عُرفه لمّا فعل ذلك)، وركّز عينيه الكبيرتين على الولدين، وسألهما: «ما الأمر، يا ولدان؟» إذ رآهما في ذلك الوقت يتهامسان ويكز أحدُهما الآخر بكوعه.



فقال ديغوري، وقد احمرَّ خدّاه: «أُوه، أصلان، سيِّدي! نسيتُ أن أقول لك إنَّ الساحرة قد أكلت فعلاً حبةً من هذا التُّفّاح، واحدةً من النوع ذاته الذي منه طلعت هذه الشجرة هنا». ولم يقُل في الواقع كلَّ ما كان يفكِّر فيه، إلّا أنَّ پولي قالته في الحال عوضاً عنه (وكان ديغوري دائماً يخاف أن يبدو غبيّاً أكثر بكثير مّما تخاف هي من ذلك). إذ قالت:

«لذا حسبنا، يا أصلان، أنَّه ربّما يكون هناك خطأٌ ما، وأنَّ رائحة هذه التفّاحات لا تهمُّها فعلاً».

فسألها الأسد: «ولماذا تحسبين ذلك، يا ابنة حوّاء؟»

«حسناً، إنّها أكلت واحدة منها!»

فأجاب: «يا بُنيَّتي، لهذا السبب تشكِّل الباقيات كلُّها رُعباً لها. ذلك هو ما يحدث للذين يقطفون ويأكلون ثماراً في الوقت غير الصحيح وبالطريقة غير الصحيحة. إنَّ الثمرة طيِّبة، ولكنَّهم يعافونها وينفرون منها بعد ذلك إلى الأبد».

قالت پولي: «أُوه، فهمت! وأظنُّ أنّها لن تنفعها ما دامت قد تناولتها بالطريقة غير الصحيحة. أعني أنّها لن تجعلها دائمة الشباب، وما شابه ذلك؟»

فقال أصلان هازًّا رأسه: «واأسفاه، سوف تنفعها! فالأشياء دائماً تفعل فعلها بحسب طبيعتها. لقد فازت بُمنية قلبها: فقد نالت قوّة لا تضعف وأيّام لا تنتهي، وكأنّها إلاهة. ولكنَّ طول الأيّام بوجود قلب شرِّير ما هو إلّا طولُ

للشقاء، وقد بدأت تختبر ذلك. فالجميع يحصلون على ما يريدون، لكنَّهم لا يحبُّونه دائماً».

وقال ديغوري: «أنا... أنا كدتُ آكلُ واحدةً بنفسي، يا أصلان. فهل كنتُ...؟»

فقال أصلان: «نَعم، كنتَ انتفعت، لأنَّ الثمر دائماً يفعل فعله، بل لا بدَّ أن يفعله، ولكنَّه لا يؤدِّي إلى سعادة أيِّ من يقطفه من تلقاء ذاته. فلو أنَّ أيَّ واحد من أهل نارنيا ذهب إلى هناك وقطف تفّاحة - دون أن يطلب أحدٌ منه ذلك - وزرعها هنا لحماية نارنيا، لكانت تحمي نارنيا. لكنَّها كانت ستفعل ذلك بتحويل نارنيا إلى إمبراطوريّة قوّية وقاسية أُخرى، مثل شارْن، وليس تلك الأرض الخيِّرة التي أريدها أنا. وقد أغرتك الساحرة بأن تفعل شيئاً آخر، يا بُنيّ، أليس كذلك؟»

«بلى، يا أصلان! لقد أرادت منّي أن آخذ تُفّاحة لأُمّي في عالمنا».

«اعلَم إذاً أنّها كانت ستشفيها. ولكنَّ ذلك لن يكون لسعادتك ولا لسعادتها. وكان سيأتي يومٌ تنظران فيه كلاكما إلى الوراء بحسرة وتقولان إنَّه كان خيراً لها لو ماتت في مرضها».

ولم يقدر ديغوري أن يقول أيَّ شيء، لأنَّ الدموع خنقته، وتخلّى عن كلِّ أمل بإنقاذ حياة أُمّه. ولكنَّه في الوقت نفسه تأكَّد أنَّ الأسد يعرف ما كان يمكن أن يجري، وأنَّه قد توجد أُمور أشدُّ هولاً من فقدان شخص

تحبُّه حين يموت. إلّا أنَّ أصلان عاد يتكلّم، بصوتٍ يكاد يكون همساً، وقال:

«ذلك هو ما كان سيحدث، يا بُنيّ، بتُفّاحة مسروقة. لكنّه ليس ما سيحدث الآن. فما أُعطيك إيّاه الآن سيجلب لك الفرح. لن يُعطي، في عالمكم، حياةً بلا نهاية، ولكنّه سيشفي. فاذهب، واقطف لأُمّك تُفّاحة من الشجرة!»

مرَّت ثانيةٌ واحدة وديغوري لا يكاد يفهم. فكأنَّ العالم كُلّه انقلب بطناً لِظَهر ورأساً على عقب. ثُمّ كمن يحلم، تقدّم ديغوري صوب الشجرة، وكان الملك والملكة يهتفان له، كما كانت تهتف له المخلوقات كلُّها أيضاً. فقطف التفّاحة، ودسَّها في جيبه. ثمّ رجع إلى أصلان وقال: «رجاء، أتسمح لنا بالذهاب إلى ديارنا الآن؟» كان قد نسي أن يقول: «شكراً لك!» ولكنه قصد أن يقول ذلك، وقد فهم أصلان قصده فعلاً.

الفصل الخامس عشر

نهاية هذه القصّة وبداية جميع القصص الأُخرى

قال صوت أصلان: «لا حاجة إلى خواتم ما دمتُ أنا حاضراً». فطرفت أعين الولدين، ونظرا حواليهما، وإذا بهما مرّةً أُخرى في الغابة بين العوالم. وكان الخال أندرو ممدّداً على العُشب وهو ما يزال نائماً، وقد وقف أصلان بقربهم قائلاً:

«هيّا! حان وقت رجوعكم. ولكنَّ هنالك شيئين يجب الاهتمام بهما أوّلاً: إنّهما تحذير ووصيّة لا بدَّ منهما. انظُرا إليَّ، يا ولدان!»

ونظرا فرأيا حفرة صغيرة في العشب، في قعرها عشبٌ، وهي دافئة وجافة.

وقال أصلان: «عندما كنتُما هنا آخر مرّة، كانت هذه الحفرة بركة، ولمّا قفزتما إليها وصلتُما إلى العالم الذي فيه أشرقت شمس مائتة على خرائب شازن. لا بِركةَ الآن. وذلك العالَم مضى وقضى، وكأنّه لم يكُن موجوداً.

فليعتبر نسل آدم وحوّاء هذا تحذيراً!»

فقال الولدان معاً: «نعم، يا أصلان!» ولكنّ بولي أضافت: «ولكنّنا، يا أصلان، لسنا أشراراً مثل أهل ذلك العالم، أليس كذلك؟»

وقال أصلان: «ليس بعد، يا ابنة حوّاء، ليس بعد. ولكنّكم تصيرون أكثر شبهاً بهم. من غير المؤكّد أنّ شخصاً شرّيراً من جنسكم لن يكتشف سراً شرّيراً مثلَ الكلمة السوداء، ويستخدمه لإبادة جميع الكائنات الحيّة. وقريباً، قريباً جدًّا، قبل أن تصيرا عجوزاً وعجوزة، سيحكم الأمَمَ الكبيرة في عالمكم طُغاةٌ بُغاة لا يهمهم الفرح والعدالة والرحمة، مثلهم في ذلك مثل الإمبراطورة جاديس. فليأخذ عالَمكم حذره! هذا هو التحذير. والآن دورُ الوصيّة: بأسرع ما يمكنكما، خُذا من خالكما هذا خواتمه السحريّة واطمراها في الأرض حتّى لا يقدر أحد أن يستعملها من جديد».

كان كِلا الولدَين يتطلّعان إلى وجه الأسد وهو ينطق بهذه الكلمات. فجأةً (وهما لم يعرفا قطّ كيف حدث ذلك) بدا لهما ذلك الوجه مثل بحرٍ من الذهب المتموّج وهُما يعومان فيه، وغمرتهما - من كلّ جانب ومن فوق وفي الداخل - عذوبةٌ وقوّة فائقتان، بحيث شعرا بأنّهما لم يكونا من قبل إطلاقاً سعيدَين أو حكيمين أو صالحين، ولا حتّى حيَّين ومستيقظين. وقد لازمتهما ذكرى تلك اللحظة دائماً، بحيث إنّهما طول حياتهما، كلّما أحسّا

حزناً أو خوفاً أو غضباً، كانت ذكرى تلك الطيّبة الذهبيّة وشعورُهما بأنّها ما تزال حاضرة على مقربة قريبة منهما - إمّا وراء زاويةٍ ما وإمّا خلف بابٍ تماماً - تعود إلى ذهنَيهما وتؤكّد لهما في أعماق كيانهما من الداخل أنّ كلّ شيء بخير. وفي الدقيقة التالية كان الثلاثة كلّهم (وقد كان الخال أندرو مستيقظاً الآن) يتشقلبون وسط ضجيج لندن وحرارتها وروائحها الساخنة.

وجدوا أنفسهم على الرصيف خارج الباب الأماميّ من بيت آل كترلي، فكان كلّ شيء تماماً كما تركوه، ما عدا عدم وجود الساحرة والحصان وسائق العربة. كان هنالك عمود الإنارة، ناقصاً عارضةً واحدة، وحُطام عربة الأجرة، والجمعُ المحتشد. وكان الجميع ما زالوا يتحدّثون، وبعض الناس راكعين قرب الشرطيّ المُصاب، مردّدين أقوالاً مثل: «إنّه يستفيق من إغماءته» أو «كيف حالك الآن، يا سيد؟» أو «ستكون سيّارة الإسعاف هنا بعد لحظة!»

وفكّر ديغوري: «عجباً! أعتقد أنّ المغامرة كلّها لم تستغرق أيَّ وقتٍ إطلاقاً».

وقد كان معظم الناس يفتّشون بلهفة عن جاديس والحصان. إنّما لم يتنبّه أحد إلى الولدين، لأنه لم يرَهما أحدٌ يذهبان ولا لاحظهما يرجعان. أمّا الخال أندرو، فبسبب حالة ثيابه والعسل على وجهه، لم يكُن أحد ليعرفه. ومن الخير أنّ الباب الأماميّ كان مفتوحاً

والخادمة واقفة في المدخل تُشاهِد تلك الأمور الممتعة (وما كان أعظمه من يوم في نظرها!) وبذلك أُتيحت للولدين فرصة إدخال الخال أندرو بسرعة إلى داخل البيت قبل ان يسألهما أحد أيّ سؤال.

وسبقهما في صعود الدرج، فخافا في البداية كثيراً أن يكون متوجّهاً إلى عليّته قاصداً أن يختبىء خواتمه الباقية. ولكنْ لم يكن من داعٍ لأن يقلقا. فما كان يفكّر فيه إنما كان القنّينة في خزانة ثيابه، فاختفى حالاً داخل غرفة نومه، وأقفل الباب وراءه. ولمّا خرج من جديد (بعد وقتٍ غير طويل)، كان لابساً روب الغرفة، وتوجّه فوراً إلى الحمّام.

وقال ديغوري: «هل تقدرين أن تأتي بالخواتم الأخرى، يا يولي؟ أنا أُريد أن أذهب إلى أمّي».

«طيّب، إلى اللقاء!» قالتها يولي وصعدت درج العليّة بسرعة.

ثمّ توقّف ديغوري دقيقة ليلتقط أنفاسه، ودخل بهدوء غرفة أمّه. فإذا بها منطرحة هناك، كما رآها مراراً وتكراراً من قبل، مستلقية على المخدّات، ووجهها شاحب ونحيل، حتى إنك تبكي إذا نظرتَ إليه. وأخرج ديغوري تفّاحة الحياة من جيبه.

ومثلما كانت الساحرة جاديس قد ظهرت مختلفة الهيئة لمّا كانت في عالمنا بدلاً من عالمها، فهكذا ظهرت فاكهة ذلك البستان الجبليّ مختلفةً أيضاً. كان في غرفة النوم بالطبع أشياء ملوّنة من كلّ نوع: اللحاف الملوّن على

التخت، ورق الجدران، ضوء الشمس من الشبّاك، قميص نوم أمّه الجميل ذو اللون الأزرق الفاتح. ولكنْ لحظةَ أخرج ديغوري التفّاحة من جيبه، بدت هذه الأشياء كلّها وكأنّها بلا لون أبداً. فكلُّ شيء، حتّى ضوء الشمس، بدا باهتاً وداكناً. فقد بعث لمعان التفّاحة أضواءً غريبة ظهرت على السقف. ولم يعُد أيُّ شيء آخر يستحقُّ النظر إليه، بل لو كنتَ هناك لما نظرت إلى أيّ شيء آخر. وقد كانت رائحة تفّاحة الشباب مُنعشةً كما لو أنّ في الغرفة طاقةً مفتوحة على السماء.



قالت أمُّ ديغوري: «أوه، يا عزيزي، ما أحلاها!»

فقال ديغوري: «ستأكلينها، أليس كذلك؟ رجاءً!»

فأجابت أمُّه: «لا أعرف ماذا سيقول الطبيب. ولكنْ بالحقيقة أشعر أنّي أقدر أن آكلها».

فقشَّرها وقطَّعها، وناولها إيّاها قطعة قطعة. وما إن فرغت من أكلها حتّى ابتسمت وألقت رأسها على المخدَّة ونامت: نوماً لطيفاً حقيقيّاً طبيعيًا، من دون أيّ واحد من تلك الأدوية الكريهة التي كانت، كما يعرف ديغوري، أشياءَ تحتاج إليها أشدَّ الاحتياج. وكان متأكّداً أنّ وجهها بدا مختلفاً قليلاً. فانحنى وقبّلها بكلّ رقّة، وانسلّ إلى خارج الغرفة بقلبٍ يخفق بشدّة، آخذاً معه قلب التفّاحة.
وفي ما تبقّى من ذلك النهار، كلّما نظر إلى الأشياء التي حوله، ورأى كم كانت عاديّة وغير مسحورة، لم يكد يأمل خيراً؛ ولكنّه لمّا كان يتذكّر وجه أصلان كان الأمل يغمره فعلاً.

في مساء ذلك اليوم، طمر قلب التفّاحة في الحديقة الخلفيّة.

وفي صباح الغد، لمّا جاء الطبيب يقوم بزيارته المعتادة، اتكأ ديغوري على درابزين الدرج يتسمّع. فسمع الطبيب وهو يخرج مع الخالة ليتيشيا ويقول:

«آنسة كترلي، هذه أعجب حالة صادفتُها طول المدّة التي مارستُ فيها مهنة الطبّ. إنّها... إنّها مثل عجيبة. لن أقول للصبيّ الصغير أيّ شيء الآن؛ فلا نُريد أن نُعزّز أيّ

آمال وهميّة. ولكنْ برأيي...» ثُمّ صار صوته أكثر انخفاضاً من أن يُسمَع.

وبعد ظهر ذلك اليوم، نزل ديغوري إلى الحديقة وصفر لبولي الصَّفرة السرّيّة التي اتّفقا عليها (وهي لم تتمكّن من الرجوع يوم أمس).

وسألته بولي، ناظرةً من فوق الحائط: «هل توفّقت؟ أقصد بخصوص أمّك!»

فقال: «أعتقد، أعتقد أنّ حالتها ستكون بخير فعلاً. ولكنْ، لو سمحتِ، أُفضّل ألّا نتحدّث في هذا الموضوع الآن. ماذا جرى للخواتم؟»

قالت: «جلبتُها كلّها. انظر، لا تخشَ! فأنا ألبس قفّازين. هيّا نطمر الخواتم!»

«نعم، هيّا بنا. لقد وضعت علامة على المكان الذي فيه طمرتُ قلب التفّاحة أمس».

ثمّ تسلّقت بولي السور، وذهبا معاً إلى المكان. ولكنْ تبيّن أنّه لم يكُن من الضروري أن يضع ديغوري علامةً لتحديد المكان. فإنّ شيئاً كان قد بدأ يطلع. لم تكن النبتة تنمو بسرعة بحيث يمكنك أن تراها وهي تنمو، مثلما جرى للشجر الجديد في نارنيا؛ ولكنّها كانت قد طلعت فوق الأرض قليلاً. فأحضرا مالجاً حفرا به الأرض، وطمرا جميع الخواتم السحريّة، ومعها خواتمهما، في دائرة حول النبْتة الجديدة.

بعد ذلك بحوالى أسبوع، صار مؤكّداً تماماً أنّ أمّ ديغوري تتحسّن. ثمّ بعد نحو أسبوعين، صارت قادرة

على أن تقعد خارجاً في الحديقة. وبعد ذلك بشهر واحد، كان ذلك البيت قد أصبح مكاناً مختلفاً. وعملت الخالة ليتيشيا كلّ ما رغبت فيه أم ديغوري: فقد تمّ فتح النوافذ، وسُحِبت الستائر العتيقة لإدخال النور إلى الغُرَف، وانتشرت الأزهار الجديدة في كلّ مكان، وصار الطعام أطيب، وتمّت دوزنة البيانو القديم وعادت الأمّ إلى العزف والترتيل، وكانت تلعب مع ديغوري وبولي ألعاباً كثيرة حتّى صارت الخالة ليتيشيا تقول: «أنا أؤكّد، يا مابيل، أنّكِ أكبر وَلَد بين الثلاثة!»

عندما تسوء الأحوال، تجد عادةً أنّها تصير أسوأ، مدّةً من الزمان. ولكنْ ما إن تبدأ الأمور بالتحسّن، حتّى تصير أحسن فأحسن عادةً. فبعد نحو ستّة أسابيع من هذه العيشة الهنيئة، وصلت رسالة طويلة من أبي ديغوري في الهند حملت أخباراً طيّبة. فقد توفي أخو أبي ديغوري العجوزُ كيرك، ومن الواضح أن هذا يعني أنّ الأب صار الآن غنياً جدًّا. وهو ينوي أن يتقاعد، ويعود إلى الوطن من الهند نهائياً. وذلك البيت الكبير الفاخر في الريف (ولطالما سمع عنه ديغوري كلّ حياته دون أن يراه) سيصير الآن بيتهم، بما فيه وما حواليه من دروع* لكامل الجسم واسطبلات وقنوات، فضلاً عن النهر والمُتنزّه وبيوت

*كانت هذه الدروع تشبه قالباً يغطي كامل جسم الفارس ورأسه. كانت تُستخدم في العصور الوسطى

الزراعة الدافئة، والكروم والغابات، وعن الجبال وراءه. وهكذا علم ديغوري يقيناً - كما لا بدّ أن تكون أنت قد خمّنتَ - أنّهم سيعيشون جميعاً حياةً سعيدة في الأيّام الآتية كلّها. ولكنْ ربّما كان بودّك أن تعرف فقط شيئاً أو شيئين بعد.

فإنّ بولي وديغوري ظلّا صديقَين مُخلِصين دائماً؛ وكانت بولي تأتي تقريباً في كلّ عطلة لتُقيم مع أهل ديغوري في بيتهم الجميل في الريف. وهنالك تعلّمت ركوب الخيل والسباحة، وحلْب البقر والخَبز وتسلُّق الجبال.

أمّا في نارنيا، فقد عاشت الحيوانات في سلام وفرح عظيمَين، ولم تأتِ الساحرة ولا أيُّ عدوٍّ آخر لنشر الاضطراب في ذلك البلد السعيد، على مدى عدّة مئات من السنين. وعاش الملك فرانك والملكة هيلانة وأولادهما بسعادة في نارنيا، وصار ابنهما الثاني ملك بلاد أرخيا. وقد تزوّج الذكور من أولادهما حوريّاتٍ، فيما تزوّجت البنات آلهة غابات وآلهة أنهار. أمّا عمود الإنارة الذي غرسته الساحرة (بغير علمٍ منها) فقد كان يشع ليلاً ونهاراً في غابة نارنيا، حتّى أصبح المكان الذي طلع فيه يُسمّى «خربة المصباح». ولمّا ذهبت بنتٌ أُخرى من عالمنا إلى نارنيا بعد سنين كثيرة، في ليلة مثلجة، وجدت ذلك النور ما يزال متوهّجاً. وكانت تلك المغامرة، بطريقة من الطرق، مرتبطة بالمغامرات التي كنتُ أحكيها لك حتى الآن.

وقد حدث ذلك هكذا: عاشت الشجرة التي طلعت من التفّاحة التي زرعها ديغوري في الحديقة الخلفيّة وصارت شجرة جميلة. ولأنّها نمت في تُربة عالمنا، بعيداً جدًّا عن نغم صوت أصلان وعن هواء نارنيا الفتيّ، فإنها لم تحمل تُفّاحاً يُحيي امرأةً محتضَرة مثلما أُحييَت أمّ ديغوري، مع أنّها حملت بالفعل تفّاحاً أجمل من أيّ تُفّاح آخر في بريطانيا كلّها، وكان تفّاحاً يطيب لك كثيراً أن تأكله، وإن لم يكن سحرياً تماماً. ولكنّ الشجرة داخل ذاتها، في عُصارتها، ما نسِيَتْ قطّ (إن صحّ التعبير) تلك الشجرة الأم في نارنيا والتي إليها تنتمي. فكانت أحياناً تتحرّك بشكل غامض من دون هبوب أيّ ريح: وأعتقد أنّه عند حصول هذا تكون الرياح شديدةً في نارنيا فتهتزّ هذه الشجرة البريطانيّة لأنّه، في تلك اللحظات بالذات، تكون شجرة نارنيا متمايلة ومترنّحة وسط عاصفة جنوبيّة غربيّة قويّة. ولكن من المحتمل، كما تبيّن لاحقاً، أنّ خشبها ما زال يحتفظ بشيء من السحر. فعندما كان ديغوري في خريف عمره (وكان قد صار رجلاً مُثقّفاً شهيراً، أستاذاً، ورحّالةً عظيماً آنذاك)، وهو مالك بيت آل كترلي العتيق، هبّت عاصفة شديدة جدًّا على جنوب بريطانيا كلّه وأسقطت الشجرة. ولم يطِق أن تُقطّع حطباً للوقود فقط، فأوصى بأن يَصنع له نجّارٌ من بعض خشبها خزانة ثياب، ثمّ وضعها في بيته الكبير في الريف. ومع أنّه هو نفسه لم يكتشف ما تميّزت به تلك الخزانة من خصائص سحريّة،

فقد اكتشف ذلك شخصٌ آخر. فكانت تلك بداية جميع رحلات الذهاب والإياب بين نارنيا وعالمنا. وعن تلك الرحلات يمكنك أن تقرأ في كُتب أُخرى.

ولمّا انتقل ديغوري وأهلُه ليسكنوا في البيت الريفيّ الكبير، أخذوا الخال أندرو ليسكن معهم؛ لأن أبا ديغوري قال: «علينا أن نحاول حفظ صاحبنا هذا العجوز من الأذى، وليس من الإنصاف أن تظلّ ليتيشيا المسكينة مشغولة به دائماً». ولم يعُد الخال أندرو ليجرّب العمل في أيّ سحرٍ مرّةً أخرى طول عمره. فقد حفظ درسه جيّداً؛ وفي شيخوخته صار عجوزاً ألطف وأقلّ أنانيّةً ممّا كان قبلاً. ولكنّه كان يحبّ دائماً أن يستقبل زوّاراً وحده في غرفة البليارد، ليحكي لهم حكايات عن سيّدة غامضة، أو ملكة أجنبيّة، جال معها بالعربة في أنحاء لندن. وكان يقول: «كان طبعها شيطانيًا، ولكنّها كانتِ امرأة رائعة جدًّا، يا سِيدي، امرأةٌ رائعة جدًّا!»

الأسد والساحرة وخزانة الملابس

«الظاهر أننا وُفّقنا بلا شك. ستكون إقامتنا هنا فاخرةً تماماً. فهذا العجوز سيسمح لنا بأن نفعل أيّ شيءٍ نريد». هذا ما قاله بطرس لسوزان وإدمون ولوسي.

من المُؤكّد أن الأستاذ المُسن بدا يعيش في عالم خاصٍّ به، ولذا سعى الأولاد لإيجاد ما يسليهم في هذا البيت الكبير الذي كان في قلب الريف يبعد كيلومتراتٍ كثيرة عن أي مكانٍ آخر.

في البداية، كان هنالك الانشغال المثير باستكشاف البيت - الممرات الطويلة، وحجرات النوم الإضافية التي لا نهاية لها، وسلسلة الحجرات التي تملأها الرفوف المُكدّسة بالكتب، وغرفةٌ كئيبة ضخمة ليس فيها سوى خزانة ملابس كبيرة. اعتقدت لوسي أن هذه الخزانة تستحق الفحص. وبينما كانت تدفع صفوف المعاطف المُعلّقة في الداخل، أحسّت شيئاً ناعماً كالبودرة وبارداً جداً. ثم لاحظت شيئاً بارداً وناعماً يسقط عليها، واكتشفت أنها تقف في وسط غابة في الليل، يغطي الثلج أرضها، وتتساقط رقائقه عبر الهواء. كانت لوسي قد وصلت إلى عالم نارنيا الغريب والسحري.

هذه مغامرة ثانية في روايات «عالم نارنيا» المثير.

كلايف ستيبلز لويس: وُلِد عام ١٨٩٨، وكان يُعرف باسم «جاك» عند أصدقائه. كان لويس وصديقه الحميم جي آر آر تولكين، صاحب ثلاثية «سيد الخواتم»، عضوين في نادي «إنكلينغز»، وهو نادٍ غير رسمي لكُتّاب كانوا يلتقون في مقهى لمناقَشة أفكارٍ للقصص والروايات. عشق لويس للقصص الخيالية والأساطير والقصص الخرافية القديمة، بالإضافة إلى الإلهام النابع من فترة طفولته، قادتاه إلى كتابة «الأسد والساحرة وخزانة الملابس»، وهو من أكثر الكتب المُحببة على مر العصور. وقد كتب بعده ستة كتب أخرى، كوّنت معاً ما يُعرف باسم روايات «عالم نارنيا». وقد مُنح آخر كتابٍ منها، وهو «المعركة الأخيرة»، جائزة «ميدالية كارنيغي»، التي تُعتبَر من أسمى الجوائز التي تُمنَح للتفوق والبراعة في كتب الأطفال.